الميزاب الذهبي

ALTINOLUK

بذور خير

مجلة تصدر كل شهرين-العدد العشرون (أيار - حزيران ٢٠١٧)

الشرعنة

إقحام أمر في دين اللّه تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة القرآء:

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن الحلال بينٌ وإن الحرام بينٌ، وبينهما أمور مشتبهاتٌ لا يعلمهن كثيرٌ من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدِينه وعِرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملكٍ حمًى، ألا وإن حمى الله محارمُه، ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلَحت صلَح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» (رواه البخاري ومسلم).

فالمؤمن التقي يتعهد قلبه ، ويسد جميع أبواب المعاصي عنه ، ويكثر من المراقبة ؛ لأنه يعلم أن مفسدات القلب كثيرة ، وكلما شعر بقسوة في قلبه سارع إلى علاجه بذكر الله تعالى ؛ حتى يستقيم على ما ينبغي أن يكون عليه من الهدى والخير ، ويبن الحديث عظم القلب وأهميته لأن صلاح حركات العبد بجوارحه واجتنابه المحرمات واتقائه الشبهات بحسب صلاح حركة قلبه فإن كان قلبه سليما ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه صلحت حركات الجوارح كلها وإن كان القلب فاسدا قد استولى عليه اتباع الهوى عبدا للشهوات وأسره حب الدنيا فسدت حركات الجوارح كلها ، ولهذا يقال القلب ملك الأعضاء وبقية الأعضاء جنوده مطيعون لأوامره لا يخالفونه في شيء. ولا ينفع عند الله يوم القيامة إلا القلب السليم قال تعالى:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٨-٨٩)

والقلب السليم هو السالم من الشبهات والشهوات. وذكر النبي ﷺ للقلب في ختام حديثة إشارة إلى أن اتقاء الشبهات سببه صلاح القلب والوقوع فيها منشأه ضعف القلب وفساده والله المستعان؛ ومن أعجب العجاب أن الناس لا يهتمون بقلوبهم اهتمامهم بجوارحهم، فتراهم يهرعون إلى الأطباء كلما شعروا ببوادر المرض، ولكنهم لايبالون بتزكية قلوبهم حتى تصاب بالران، ويطبع الله عليها، فتغدو أشد قسوة من الحجارة والعياذ بالله.

نسأل الله تعالى أن يصلح قلوبنا ، ويصرّفها على طاعته ، وأن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه ، وأن يرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه...آمين

كلمة التحرير

الميزاب الذهبي

مجلة تصدركل شهرين

العدد العشرون
(أيّار– حزيران ٢٠١٧)

رئيس التحرير
بيت اللهّ دميرجي اغلوا

مدير التحرير
حسام يوسف

هيئة التحرير
بيت اللهّ دميرجي اغلوا
حسام يوسف
آدم أزدمير
د. مراد قايا

التصحيح والتدقيق اللغوي
أ. حسن مرشد
أ. محمد عز الدين سيف

التصميم والتنضيد والاخراج الفني
حسام يوسف

إدارة المجلة.
Organize Sanayi
Bölgesi Turgut Özal Cad. No: 117/2-C
Başakşehir / İstanbul Tel:0090 212 671 07 00

دار النشر والطباعة
Erkam Matbaasi Organize Sanayi.
Bölgesi Turgut Özal Cad. No: 117/2-C
Başakşehir / İstanbul Tel:0090 212 671 07 00

الإشتراك
لكي تصلكم المجلة بشكل دوري
يمكنكم الإشتراك سنوياً بمبلغ ٣٠ دولار

كما يمكنكم المساهمة بإرسال المقالات والملاحظات على عناوين المجلة
للمراسلة
almizab2011@hotmail.com
almizab2011@gmail.com

المحتويات

الشرعنة
أحمد طاش غَتيرن

نقطة السويداء
أدهم جبَجي أوغلو

الإعتداء على المفاهيم الإسلامية
الأستاذ: عثمان نوري طوبّاش

العبث بالفطرة
د. سليمان درن

افتتاحية العدد	١	الإعتداء على المفاهيم الإسلامية	٢٨
الشرعنـــــــــــــــة	٣	التضحية بالعباءة	٣٤
التربية المعنوية في حياة محمود سامي	٦	العبث بالفطرة	٣٦
إلباس الباطل لباس الحق	٨	القدرة على العفو	٣٩
ليكن كلامك طيباً	١٢	للمرارة لذة أيضاً	٤٢
الشرعنةإقحام أمر في دين الله	١٤	ما مدى استعدادنا	٤٤
نقطة السويداء	١٩	الثبات على الحق	٤٦
الإبتعاد عن الفتنة	٢٢	تساؤلات	٤٨
التوبة النصوح	٢٦	الجيل الجميل	٥١
الشكر على الروحانيات	٢٧	زيد بن أرقم-٢	٥٤
		ماذا تعني صبغة الله	٥٦

ملاحظة: المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

الشرعنة

أحمد طاش غَتيرن

ينبغي لنا التوقف عند هذا المفهوم والتأمل فيه ملياً، لأن درجة إسلامنا ترتبط بهذا المفهوم. وإن لم نلاحظ الفرق بين ما هو (مشروع) و ما هو (مُشرعَن) ولم ننتبه إليه جيداً، فإن الحياة مع مرور الزمن سوف تكون قائمة على (المُشرعنات)، وتبتعد كثيراً عن (المشروعات).

فما مفهوم الشرعنة؟

إن أجلى جواب على هذا التساؤل هو:

الشرعنة حملة نفسية نشنُّها على أنفسنا.

هي عملية إخماد تأنيب الضمير الذي يثور في داخلنا.

إنها عملية لوي الأحكام الإسلامية، وإقناع الذات ببقائها ضمن حدود هذه الأحكام ولو تم في الحقيقة الخروج عنها؛ هي محاولة إنماء إحساس داخلي بأن المرء في نطاق الإسلام، والتخلص من الشعور بأن ما تم القيام به عمل خارج عن الإسلام.

وباختصار هي عملية يخدع بها المرء نفسه.

توصف (المشروعية) بأنها البقاء ضمن "إطار الشريعة" والذي يُقصد به المعايير والقواعد الأساسية للإسلام. وأما (الشرعنة) فتعني تصور البقاء ضمن نطاق الإسلام، وهذا التصور يتم خلقه عن طريق التفافات وتبريرات ذهنية أو فعلية، مع أن الواقع خلاف ذلك، أي خارج عن الإطار الرئيسي للشريعة... وبعبارة أخرى؛ هي إضفاء الشرعية على الأمر اللامشروع.

إن الشرعنة بحثُ الإنسان عن الأحكام والمعايير باتباع أهوائه وشهواته، وتطبيق ما يجد منها موافقاً لهواه، مع أن الذي يضع ويحدد الأحكام إنما هو الله ﷻ.

هي تخصيص "الأهواء والشهوات"- بعلم أو بغير علم- بمهمة "وضع التشريع" التي تحمل صفة إلهية.

عندما نستعرض واقع حياتنا ونحلِّله عن كثب، فإننا سوف نجد أعمالاً يُنظر إليها نظرة مشروعة، مع أنها ما كانت لتحدث لو أننا كنا في جوٍّ تُرَاعَى فيه الأحكام الإسلامية السليمة كما ينبغي.

فكيف ننزلق إلى مثل هذه الحال؟ يحدث ذلك كالآتي: في البدء يحيط بنا من كل جانب نظام أو وضع راهن أو ثقافة منتشرة لا توافق الأحكام الإسلامية، ثم تتسرب رويداً رويداً إلى داخلنا وتكتسب نفوذاً على شكل سلوك تارةً، وعلى شكل تصور ووعي تراة أخرى، ثم مع مرور الزمن تقوم بطرد ما هو إسلامي من حياتنا لتحل هي محله. إن هذه الحال تشبه إلى حدٍّ ما (متلازمة الضفدع المغلي)، فهي حال الاستغراق والاندماج ضمن نظام ما، والتعرض للغليان وفقدان الحياة دون ملاحظة الأمر والانتباه إليه. أو تشبه (الوعي الاستعماري المكتسب) والذي يعني رؤية الإنسان المُستَعمِر على أنه شيء طبيعي، وفقدان المعنى الحقيقي للحرية والاستقلال، وتمجيد إطار الحياة التي رسمها المُستَعمِر.

تذكر المصادر التاريخية بأنه لما ألغى الرئيس الأمريكي (أبراهام لينكولن) نظام العبودية في أمريكا وأطلق سراح العبيد الأفارقة، وأعاد إليهم حريتهم المسلوبة، رجع هؤلاء بعد مدة إلى أسيادهم مفضلين العبودية لهم على الحرية التي نالوها حديثاً. فهذه الحال تمثل تماماً حال التحول الذهني للمسلم الذي يعيش داخل بيئة غير إسلامية، والرضا الذي يبديه لإسلام ناقص ضمن هذه البيئة.

إن شخصية من هذا النوع هي في الوقت ذاته شخصية فاقدة لروح المقاومة لما هو "غير إسلامي".

فالشرعنة حال إقحام ما هو غير إسلامي في الإسلام. فهي تقليصٌ للإسلام، وإكثارٌ لمفرزات العقائد أو الأنظمة أو الثقافات الأخرى في عالم المرء دونما انتباه منه إلى ذلك، وظهورٌ لمفهوم الإسلام المفرَّغ من ومحتواه بدرجة كبيرة مع مرور الزمن.

وفي مثل هذه الأحوال يلجأ كل إنسان إلى الاقتصاد في إسلامه بقدر ما تدفعه ظروفه وأوضاعه. فيتم بذلك تقليم الحياة والعقول والأذهان.

وقد قيل عن مثل هذه الأحوال: "إن لم تستطع أن تحيا كما تعتقد، ستبدأ بالاعتقاد كما تحيا".

فهذه هي شرعنة الحياة، وإعادة تفسير معايير الاعتقاد وفق الواقع مهما كان.

لنفترض أن نظاماً عالمياً عمل بالإجبار على فرض حياة تسودها الفائدة والربا، فما الذي سينتج عن ذلك؟ سوف تبدأ عقول الناس ابتداءً من طبقة البسطاء وحتى أصحاب العلم، وبما في ذلك "المؤسسات غير الربوية" بعملية الشرعنة، وتدريجياً سوف تلقى الأعمال الربوية قبولاً ورضا لدى المسلمين. ولنفترض أنه تم تضييق مساحة الخصوصية للمسلم، فسوف يعقب ذلك على الفور بدء عملية تآكل لمبادئ الخصوصية في أذهاننا.

وما نقد العلوم الإسلامية من خلال مصطلح "التاريخية" إلا نتيجة هذه الذهنية الناقصة.

إن الشرعنة توسيعٌ مبالغ به لقاعدة (مجلة الأحكام العدلية): "تتغير الأحكام بتغير الأزمان" لدرجة التضحية ببُنية الأحكام وأصولها.

ينبغي أن نبقي على شعور: "الله يراني، الله يراقبني، والله عالمٌ بسرِّي وجهري" حيَّاً بين جوانحنا، وأن نُجنِّب أنفسنا ضلالة الشرعنة، ونُصرَّ على التمسك بالمشروع مهما كلف الأمر من ثمن. الإصرار على المشروع يعني الإصرار على الشيء الذي يحقِّق الاطمئنان القلبي ويُكسِب رضا الله تعالى.

وقد تجلى هذا المنطق بفرض مفهوم معين بشأن الإسلام على المجتمع- باستخدام سلطة الدولة- من قبل الأنظمة الساعية إلى حصر الإسلام ضمن حدود ضيقة في الحياة، بدعوى أن هذه هي "حدود الإسلام في هذا العصر". إذ سعت الآراء والاتجاهات المتبنِّية لنظرية الدولة العلمانية خلال كافة مراحل القرن الماضي لفرض هذا المنطق على أذهان المسلمين، وعمل المسلمون بدورهم على حماية إسلامهم من سياسة هذه الأنظمة العلمانية التي تهدف إلى إعادة ترتيب الدين كله.

وأما اليوم فإن عقول المسلمين تتعرض- إضافة إلى ضغوط الأنظمة العلمانية- لهجمات من نوع آخر ألا وهي الثقافة العالمية، والتي تدفعه إلى القول بنوع من الاستسلام: "هكذا هي الظروف والأوضاع العالمية، فماذا أفعل!"، ويبدو بأن المجتمعات الإسلامية تبتعد عن روح المقاومة التي أظهرتها في الماضي تجاه ضغوطات الأنظمة العلمانية على إسلامها.

إن حالة عدم التعرض للضغط المباشر مثل عملية التنفس، حيث تكون هناك في الظاهر حالة استنشاق لهواء في بيئة طبيعية.

ولكن يبدو بأن المسلمين والإسلام لا يساهمون في تحديد الإقليم الثقافي الذي يتنفسه العالم.

فالمسلمون خاملون، ومحاصرون ، وأسرى لهذا العالم... إن بيت المسلم المحصن لا يكفي لصد الموجات المغناطيسية التي تتمتع بها الثقافة العالمية، إذ إن حواجزنا الذهنية والعقلية بحالة يُرثى لها، فهي مليئة بالثقوب والتصدعات.

إننا نقف أمام مشكلة كبيرة وجهاً لوجه، فالإسلام لا يكون بغير الإنسان، والإنسان بدوره لا غنى له عن الإسلام. ولكن الهوة بين الإسلام والإنسان تتسع وتتعاظم، لأن العلاقة بين المسلم الذي سيحمل الإسلام ويبلِّغه للناس وبين الإسلام صارت علاقة مليئة بالمشكلات. فالمسلم يتوجه لقيادة الناس إلى الإسلام، بينما الإطار الذهني والحياتي للمسلم يتعرض للتحول.

فما الذي سيحدث؟

ينبغي لنا نحن المسلمين أن نطرح هذا التساؤل أولاً على أنفسنا. وذلك لأنه لا بد من إدراك مدى أهمية الإسلام بالنسبة للإنسان.

فينبغي أن نتمتع بحزم ويقظة بل وحيوية ذهنية وقلبية تامة، ينبغي أن نحيي الخلايا الميتة لكافة أعضاء جسدنا ابتداءً من الذهن والقلب، ونعيد تدفق الدم والروح إليها.بإن "الشرعنة" مرض ذهني وقلبي. هي جرثومة تتسلل إلى أجسامنا عن طريق "تزيين الشيطان". فعلينا أن نطور مضادات هذه الجرثومة.

ينبغي أن نبقي على شعور: "الله يراني، الله يراقبني، والله عالِمٌ بسِرِّي وجهري" حيًّا بين جوانحنا، وأن نُجنِّب أنفسنا ضلالة الشرعنة، ونُصِرَّ على التمسك بالمشروع مهما كلف الأمر من ثمن. الإصرار على المشروع يعني الإصرار على الشيء الذي يحقِّق الاطمئنان القلبي ويُكسِب رضا الله تعالى...

ينبغي لنا الحفاظ على ارتباطنا وصِلتنا بالله تعالى في زمن تخيم عليه الفتن كقطع الليل حيث تعمى الأبصار والبصائر، ويصبح فيها الإنسان مؤمناً ويمسي كافراً، ويصبح كافراً ويمسي مسلماً.

إنه لأمر بالغ عسير شاق.

ذلك أننا في زمن قال عنه الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام: "القابض على دينه كالقابض على الجمر"... وزمنٌ من أحيا فيه سُنَّةً فله أجر مئة شهيد...

فما رأيكم بإجراء فحص شامل لشخصيتنا كي نميز في حياتنا بين ما هو مشروع وما هو مشرعن، ونقف بين يدي ربنا سبحانه وتعالى بسِجل نقي طاهر؟.

التربية المعنوية في حياة

محمود سامي رمضان أوغلو

-رحمه الله-

الأستاذ: عبد الله سِرت

إننا نرى اليوم أنه يتم بين الحين والآخر طرح أمور مختلفة جداً على الأمة باسم التصوف، ونجد أن بعضها لا يراعي الشريعة، ونلاحظ أن بعضها الآخر مقدَّم باسم التصوف وغارق في الانحرافات والخرافات. لقد كتب السيد أحمد طاش غاتيرَن مقالاً في أحد أعداد مجلة (ألتون أولوك) (العدد ٣٢٤) بعنوان (بيدِ مَن أمسكُ؟) وهذا ما حث عليه سامي أفندي، وما حث عليه موسى أفندي وعثمان أفندي. والحق أن الإنسان يتعرض أحياناً خلال مسيرة حياته إلى أزمات وهموم، ويرغب بأن يتمسك بيدٍ ترفعه مما هو فيه. ولكن تلك الأيادي التي يُستمسَك بها يمكن أن تكون ملوثة أحياناً من ناحية العقيدة، وأحياناً تكون ملوثة من ناحية المعاش ومصادره، وأحياناً تكون ملوثة فكرياً. ولهذا ينبغي الحرص على الإمساك بأيادٍ نظيفة وطاهرة، ومرافقة أناس طيبين وطاهرين. وانطلاقاً من ذلك فإننا نقول بأن هذا النهج يحمل أهمية كبيرة.

إننا- جماعة آلتون أولوك وجماعة هدائي- نحاول أن نبين هذا النهج ونشرحه للناس في كل مكان نذهب إليه. هذا النهج الذي يعني أولاً الاعتقاد بعقيدة أهل السنة المستنبطة من الكتاب والسنة، ثم العلم بأحكام الشريعة التي تمثل حياتنا، ثم العمل بهذا العلم، ثم بعد ذلك تزكية النفس وتطهير القلب، والتي تعني تنقية النفس من كل الصفات والخصال السيئة، وإيصال القلب إلى حالة من الصفاء يصبح فيها أهلاً ليكون محلاً لنظر الله.

ويتحدث أستاذنا الجليل في كتاب (سيدنا إبراهيم عليه السلام) عن خطاب الله تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام:

"لا ريب يا إبراهيم أنك خليلي، وأنا خليلك. فاحذر من أن أجد أحداً غيري في قلبك عندما أنظر إليه! وإلا فإني سوف أقطع محبتك تجاهي، لأني أختار لمحبتي مَن حتى إذا أحرقته بالنار فإن قلبه لا يتجه لغيري، ولا ينشغل بغيري...".

فالصحبة جمالٌ مكانه القلب، حيث يبدأ ويكبر ويزدهر فيه. وها هو سامي أفندي يريد أن يحملنا ويوصلنا إلى هذه المراحل؛ أي الوصول بقلبنا إلى مرحلة إذا ما نُظر إليه فلن يُرَى فيه شيءٌ غير الله تعالى، ليصبح قلباً مجهزاً ومستعداً للنظر الإلهي. لقد خضع إبراهيم عليه السلام لهذا الامتحان، إذ لما جاءه جبريل عليه السلام وقال له: يا إبراهيم سوف يُلقى بك في النار، فهل تريد مني عوناً؟

أجابه سيدنا إبراهيم عليه السلام بقوله: "حسبي الله ونعم الوكيل". من يشعل النار؟ الله تعالى، ومن يخمدها؟ الله تعالى، فإذا كان الأمر كذلك فهو حسبي.

فهذا هو الحد الذي أراد سامي أفندي أن يوصلنا إليه، وهو الحد الذي عبرنا عنه بتطهير القلب. وكان سامي أفندي طيلة سنوات حياته يقف عند موضوع القلب في أغلب كتبه، والأكثر من ذلك في مجالس دروسه، حيث لم يكن يخلو مجلس من مجالسه تقريباً من ذكر القلب وتطهيره، إذ يقول:

"ينبغي الانتباه إلى هذه الأسس من أجل تطهير القلب، فالقلب محل نظر الله".

وكما عبر في كتبه أيضاً بقوله:

"الكعبة بناء إبراهيم عليه السلام، وأما القلب فهو بناء الله ومحل نظره". لذا لا تجرحوا القلوب، واعملوا على أن تصبحوا سلاطين في القلوب، وفي الواقع فإنه بنفسه قد أصبح "سلطان القلوب".

كنت أود في بداية حديثي أن أشير إلى أنه ورد في كتاب (سيدنا إبراهيم عليه السلام) دعاء مذكور في القرآن الكريم على لسان إبراهيم: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾. فماذا يقصد إبراهيم عليه السلام بهذا الدعاء؟ إن سيدنا إبراهيم عليه السلام يقول في هذا الدعاء: يا رب اجعل الأجيال القادمة تذكرني بخير. إنه يطلب أن يُذكَر عبر كل العصور، وها هو يُذكَر مع نبينا عليه الصلاة والسلام على لسان أمة محمد ﷺ.

لا بد أن سامي أفندي أيضاً عندما كان يفكر ببرنامج عمله في المساء، ويكتب تفسير هذه الآيات، كان يرد في قلبه هذا الدعاء: يا رب! أسألك دعاء الأجيال القادمة لي. فهذه أمنية كل فانٍ على وجه هذه الأرض. ولا شك أن الله تعالى قد قَبِلَ دعاء ذاك الإنسان الصالح؛ إذ يُذكر اليوم في قاعات المؤتمرات، وفي المجالس، ويُذكر كل صباح في ساعات السحر، وتُقرأ كتبه الآن في أفريقيا، وتترجم إلى اللغات الآسيوية. وأنا واثق بأن ذكره سوف يتردد لدى الأجيال القادمة أيضاً. لذلك فإني أعتقد بأن هذا النهج الذي وضعه في أعماله وكتبه نهجٌ مهمٌّ ليومنا هذا أيضاً.

وأخيراً أودُّ أن أختم حديثي بمقتطف من تفسيره لسورتي يونس وهود، وربما يكون لنا رسالة ضرورية في يومنا هذا. يقول رحمه الله: "إن الغاية القصوى من خلق المخلوقات إنما هي توسلهم بأحسن الأعمال في سبيل نيل رضا الله تعالى. ومن الضروري الترفع عن الأعمال السيئة والمنكرة. والمراد بالعمل هو الأعمال المخصوصة بالقلب والأعضاء معاً. لهذا فقد فسر رسول الله ﷺ الآية المباركة ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ بقوله: "ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعه الله".

أي إن العبرة ليست بكثرة العمل، وإنما العبرة بنوع العمل، العبرة أن يكون العمل في مقام الإحسان.

وليكن آخر الكلام من كلام سامي أفندي:

"إن ما يلزم السالك على الطريق الروحاني هو التأدب بآداب الأنبياء والأولياء الصالحين. فينبغي أن يخطو خطوته الأولى في هذا الطريق بالوجه الذي أُمر به. وينبغي أن يلتزم بصورة تامة برعاية الأمانة، وبالبقاء على الاستقامة. وينبغي أن يؤدي لكل صاحب حق حقه، وأن يلزم نفسه بأدق الموازين. فإذا راعى الإنسان هذه الأمور فإن الله تعالى يقبله عبداً من عباده الصالحين، ويعزه في الدنيا والآخرة.

وأما إن غدر وظلم، وخان وتكبر، ثم تجبر، فإن الله يطرده عن بابه، فيذله في الدنيا، وينتقم منه في الآخرة، ويدخله في زمرة المحرومين من رحمته. إن الذي لا يدرك عفو الله تعالى وفضله يعيش في الدنيا شقياً، ويموت شقياً، ويُحشر يوم القيامة شقياً".

نعوذ بالله تعالى من هذه الحال، ونسأله أن يحيينا مؤمنين، ويتوفانا مؤمنين، ويبعثنا مؤمنين، ويحشرنا في زمرة الصالحين.

إلباس الباطل لباس الحق

د. آدم أرغول

خُلق الإنسان متميزاً عن سائر المخلوقات الأخرى بامتلاكه وجداناً. ويُعد الوجدان الذي لم يتعرض للانحراف ميزان الحقيقة المثبَّت في جوهرنا.

ومن الوصايا النبوية ابتعاد الإنسان عند إصدار الفتاوي عن أي أمر من شأنه إرباك القلب وتعكير صفوه. غير أن الإنسان قد يخدع نفسه بغية التخلص من تأنيب الوجدان الذي يُحْدثه الذنب أو الخطيئة التي تقترفها يداه، ويحاول أن يصمَّ أذنَيه عن صوت الحقيقة الذي يعلو بين الحين والآخر في أعماقه. فيعمل على إلباس الباطل لباس الحق، وبعبارة أخرى: يشن حملة لإضفاء الشرعية على أخطائه وانحرافاته؛ أي يحاول شرعنتها.

إن غريزة الدفاع عن الذات موجودة في فطرة الإنسان. وإذا كان الاعتراف بالذنب والتراجع عنه فضيلةً، فإن الإقدام على مثل هذا السلوك الفضيل والالتزام بهذا المبدأ السامي ليس بالعمل السهل الذي يمكن لكل إنسان القيام به.

ويُعَدُّ مثل هذا السلوك من علامات أصالة الشخصية وتميزها. ولعل الأهمية الكبيرة للتوبة والاستغفار نابعة من هذا المنطلق، حيث يحققان انسجاماً وإخلاصاً وصدقاً داخلياً. أما محاولة الإنسان المذنب- بدلاً من التمسك بهذه الفضيلة- تفسيرَ الحقيقة والقيم الأصيلة وفقاً لآرائه وأفكاره الشخصية بهدف الدفاع عن خطئه وإظهار نفسه بمظهر المُحِق فما هي إلا اتباع لهوى النفس، وخداع للذات.

وقد بيَّنَ القرآن الكريم أن هذا النوع من السلوك من الأعمال الجالبة للغضب والعذاب الإلهي، وذكرَ الذين يعملون على تفسير الآيات القرآنية وفهمها وفقاً لأهوائهم ورغباتهم بدلاً من إصلاح أنفسهم وتقويم سلوكهم بما يتماشى مع الآيات، ووصفهم بالمفسدين الذين يحرِّفون الكتاب.

إن مرض النظر إلى الخطأ والذنب نظرةَ استحسان ومحاولة إظهاره للناس بمظهرٍ حسنٍ لإثبات الشخص صحةَ وجهة نظره، وأنه محق بعمله، هو في الأصل أسلوب شيطاني. فالشيطان قد بيَّنَ بنفسه سبب امتناعه عن السجود لآدم عليه السلام، فكانت حُجَّته:

"أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين".

إذ إن نار الحسد التي كانت تلتهب في داخله قد أعمت بصيرته، فلم يدرك جرأته على إعلان العصيان أمام الذي أصدر إليه أمر السجود.

وكذلك لما أقدم إخوة يوسف عليه السلام على حَبْكِ مؤامرة قتله والتخلص منه، أخذوا يسردون الأسباب التي حملتهم على هذا الفعل الشنيع لإظهار أنهم على حق، فقالوا كما يذكر القرآن الكريم:

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (يوسف: ٨- ٩)

إذا ما أمعنا النظر قليلاً في كلامهم يتبين لنا: أنهم يعلمون بأن القتل ذنب وخطيئة، إلا أنهم يجعلون سبب الخطأ في أبيهم ذريعةً لتبرير ارتكابهم لهذه الجريمة المنكرة. ويحاولون إقناع قلوبهم من خلال حمل أنفسهم على الاعتقاد بأنهم سوف يتطهرون ويتخلصون من آثار الجريمة بعد إعلان التوبة، فهذا الأمر يُعد من أحد وسائل الشيطان لغواية وخداع الإنسان؛ أي تزيين أعمال الإنسان وإظهارها بمظهر حسن. وقد كان الشيطان قد أعلن هذه الحيلة والمكيدة التي يتبعها مع بني آدم منذ بدء الخليقة، إذ قال كما جاء في القرآن الكريم:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر: ٣٩- ٤٠)

إن السعي ومحاولة إضفاء المشروعية على الأخطاء والذنوب نابعة بصورة عامة إما من النفاق، أو من مرض قلبي.

إذ يقول الله تبارك وتعالى في الذين يعتقدون بضرورة التودد إلى اليهود والنصارى بدافع المصلحة، وحتى بناء علاقات الصحبة والصداقة معهم:

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (المائدة: ٥٢)

إذاً؛ إن عدم رعاية الحدود التي رسمها ربنا عز وجل بحجة "الحيطة" على الرغم من التحذير الإلهي هو لجوء إلى شرعنة أمر فاسد.

إن الشيطان والنفس عندما يشنَّان حملةً لخداع الإنسان المؤمن وغوايته، فإنهما يأتيانه بصورة عامة من مدخل يبدو محقاً وسليماً.

ويُلَاحَظ هذا النوع من الشرعنة أو إضفاء المشروعية في الكثير من نواحي الحياة. فمثلاً يقول الإنسان الذي لديه ضعف تجاه المال والنقود:

"ينبغي أن يكون المسلم في هذا العصر غنياً. ذلك أن حفظ كرامة الإسلام والمسلمين لا يتحقق إلا بذلك.

أجل، الفائدة والربا حرام؛ ولكن كيف لإنسان لا يمتلك رأسمالاً أن يصبح غنياً إن لم يأخذ قرضاً؟ يا أخي، إنك اليوم مضطر إلى ذلك لمواجهة أعداء الإسلام. عليك أن تتسلح بسلاح عدوك. فينبغي أن لا يكون هناك حرج من التعامل بالربا بهذه النية".

ويقول الذي لديه ميل نحو الرشوة:

"يا أخي، عندما تنظر إلى حال الدنيا ستجد نفسك كالملائكة فيها. أجل، لديك أخطاء وذنوب، ولكن من منا ليس لديه ذنوب! تنظر إلى الناس من حولك فتجدهم يأخذون أموالاً بالملايين. وأما أنت فيقدِّم أحدهم إليك هدية، هذه ليست رشوة، بل هي من حقك. هل أنت أكثر الناس صدقاً ونزاهة في العالم كله؟ وبالأساس فإنهم لا يدفعون لي ما أستحقه. ولعلي أواجه بهذا المبلغ الذي آخذه بعض المسؤوليات المترتبة على عاتقي".

وأما الذي أُغرم بحب الرياسة والإدارة فيقول:

"انظر يا سيدي. لو أنك استلمت الإدارة، فسوف تكون وسيلة لتحقيق الخير الكثير لهم. فالناس قليلو البصيرة، ضيقو الأفق، متكاسلون في القيام بواجباتهم. نعم؛ يُقال بأن الافتراء ذنب وخطيئة، ولكن هل يُعد ما تقوله شيئاً بالمقارنة مع أعمال الخير التي ستقوم بها، وخطوات التطور والتقدم التي ستحققها.

وبالأساس، ألم يأتِ القائمون على الإدارة الحالية إلى هذا الموقع من خلال مجموعة من الألاعيب؟

فبعد الوصول إلى الهدف المطلوب سوف تجد طريقة تسيطر بها على قلوبهم فتطلب السماح وينتهي الأمر".

ويقول الذي وضع نصب عينيه الوصول إلى السلطة والحكم:

"يا صاحبي! لن تستطيع تطبيق المبادئ والقيم في المجتمع دون الوصول إلى السلطة والإمساك بزمام الأمور في الدولة. وما دام الأمر كذلك فعليك إيجاد موطئ قدم في البيئة التي أنت فيها حتى الوصول إلى السلطة والحكم. فتخفي هدفك وغايتك التي تسعى إليها، وتتصرف في كل الأمور مثلهم. فالصلاة تقضيها فيما بعد، وإذا اضطررت لشرب الخمر معهم، تفعل ذلك، ثم تتوب فيما بعد. فنيتك سليمة ونبيلة، ألا يُقال: إنما الأعمال بالنيات؟ وبناء على ذلك فكل شيء مشروع لك حتى الوصول إلى هدفك".

من الوصايا النبوية ابتعاد الإنسان عند إصدار الفتاوي عن أي أمر من شأنه إرباك القلب وتعكير صفوه. غير أن الإنسان قد يخدع نفسه بغية التخلص من تأنيب الوجدان الذي يُحْدثه الذنب أو الخطيئة التي تقترفها يداه، ويحاول أن يصمَّ أذنَيه عن صوت الحقيقة الذي يعلو بين الحين والآخر في أعماقه. فيعمل على إلباس الباطل لباس الحق، وبعبارة أخرى: يشن حملة لإضفاء الشرعية على أخطائه وانحرافاته؛ أي يحاول شرعنتها.

ويقول من يقصِّر في عباداته لخدمة يؤديها:

"يا أخي! إنك تؤْثِر على نفسك، إذ إنك تفضل خدمة الآخرين على نفسك. فأنت تجري ليل نهار دون كلل أو ملل. ومن الطبيعي أن تفوِّت أحياناً صلاة الفجر، وتقصِّر في الوِرْد الليلي. من الجميل أن نقوم بكل شيءٍ على أكمل وجه بلا تقصير، ولكن ماذا نفعل، فهذه قدرتنا، وإن شاء الله سوف يتقبل ربنا منا هذا القدْر!".

ويقول العامل أو الموظف الذي يقصر في عمله ووظيفته:

"أنا بالأساس أقوم بالكثير من العمل، وأبذل مجهوداً كبيراً. فالأجرة التي يدفعونها لي لا تساوي أبداً الجهد الذي أبذله. ومن يقوم في هذا المكان بعمل أكثر مني!".

فوجهات النظر هذه وأمثالها لا تعني إلا اتباع هوى النفس، وإلباس الباطل لباس الحق. فلو أن من يقول ذلك استطاع النظر إلى مرآة وجدانه بإنصاف وموضوعية، فإنه سوف يُدرِك اِعوجاجَ أعماله بصورة جليَّة.

ولكن لا يمتلك الجميع الجرأة الكافية للنظر إلى تلك المرآة؛ لذلك يظهر أشخاص ممن يخادعون أنفسهم، ومع مرور الزمن يصدِّقون خداعهم وأكاذيبهم، حتى إنهم يعتقدون بأنها الحقيقة بعينها.

وإذا ما كان هؤلاء في مواضع القرار والتأثير، فإن آثار كذبهم وخداعهم لا تقتصر عليهم فقط، وإنما يحملون الكثير من أفراد المجتمع على الاقتناع بأباطيلهم، وتلقيها على أنها حقائق لا يتسرب إليها الشك. فهؤلاء كالذئاب المتخفية بهيئة الحملان.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

"أيها الإنسان، هل تستطيع أن ترينا شيئاً في هذا العالم قد وُجد من تلقاء ذاته؟ انزع نبتةً غُرِسَت ونمت بنفسها من الأرض وانظر هل انتهت بنفسها!"

إن عالم النباتات الذي نتغذى من خضرواته وفواكه المتعددة الأشكال والأصناف، وتنتعش قلوبنا بأزهاره المختلفة ألوانها وروائحها، إنما وُجد من خلال عملية التركيب الضوئي التي هي الأخرى من إكرام الله تعالى. وماذا لو لم يكن موجوداً؟ ماذا لو أن هذه الدنيا كانت عالماً من الصخور والجبال الجرداء القاحلة؟

من حديقة القرآن

جعفر دورموش

ليكن كلامك طيباً

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (إبراهيم: ٢٤- ٢٥)

إن ما يلفت انتباهي عندما أجلس ساعة بوقار وسكينة لتلاوة آيات عطرة من كلام الله تعالى هو هالة الرِّقَّة واللطف التي تحف بذلك الكلام.

أنظرُ فأجد بأن الآيات التي ترسم للقلب خطوطه ترشدُ الإنسانَ أيضاً إلى استخدام أعضائه في الخير والحق. إنها تُقوِّم اعوجاجَ اللسان وتوجهه، إنها تحوِّل منطق القول نحو المحاسن والفضائل من خلال مختلف الأوصاف والصفات:

على سبيل المثال: يطلب القرآن الكريم من الإنسان عند مخاطبة الوالدين أن يكون قوله "كريماً".

ومعنى ذلك: "تعامل معهما دائماً وأبداً بكرم، وخاطبهما بقول جميل لين لطيف".

ويأمر القرآن الكريم في آية أخرى بأن يكون الكلام أو القول عند التحدث إلى الوالدين: "ميسوراً".

ومعنى ذلك: "الكلام السهل الجزل، والميسَّر، والجاذب للقلب". ونريد أن نشير هنا إلى مسألة بشأن هذا الأمر الإلهي، ألا وهي وروده بعد الآية التي تنهى عن قول "أف" للوالدين اللذين هما سبب وجودنا في هذه الحياة، والآية التي تأمر بإعطاء ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل حقوقهم.

ثم بعد ذلك يأتي الأمر بأن يكون القول الموجَّه إلى النساء، والصغار، واليتامى، والفقراء "معروفاً". وهذا يعني "القول المعلوم والمقبول لدى الجميع". ذلك أن تعلق الأمر بالأشخاص المحيطين بالإنسان والموجودين في الدائرة القريبة منه شيءٌ مهم.

وأما القول الموجه إلى اليتامى فلا بد أن يكون "سديداً". وهذا يعني أن يكون: "صواباً". وإن ما يلفت الانتباه هنا هو ورود الآية الكريمة بحق اليتامى الذين قال عنهم نبينا ﷺ مشيراً بإصبعيه: "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا".

ويطلب القرآن في آية أخرى نصح الذين يعلم الله ما في قلوبهم من حقد وبغضاء دون مبالاة بهم. ويأمر بأن يكون هذا القول والوعظ "بليغاً". ومعنى ذلك: "قولاً فصيحاً ومؤثراً". ونريد لفت الانتباه إلى أن التأكيد على البلاغة هو بناءً على أهميته الكبيرة.

ويأمر الله تعالى- كما جاء في القرآن الكريم- موسى وهارون عليهما السلام عندما أُرسِلَا إلى فرعون لتبليغه بأن يكون قولهما "ليناً". ومعنى ذلك "قولاً طيباً ملاطفاً للقلب". ينبغي التفكير هنا بتمعن في تحقق شرط "اللين" أي القول الطيب واللطيف على القلب في العبارات التي ستُقَال لمثل هذا النوع من المُخاطبين.

وأودُّ هنا أن أبيِّن أولاً الأمر الآتي: إن الآيات المُشَار إليها في الأعلى تبيِّن طريقة التعامل والتخاطب مع الأشخاص المذكورين، إلا أنه ليس من الصواب حصر الأمر بالمخاطبين الذين ورد ذكرهم هنا. بل على العكس من ذلك، حيث إن هذه الأوصاف مثل اللطافة، والبلاغة، والقول المعروف، والميسور تعلِّمُنا مبادئ الخطاب وأصوله. إنها تبين لنا آداب الحديث مع جميع الأطياف في المجتمع وذلك من أقرب الناس إلى أبعدهم، ومن أضعفهم إلى أكثرهم قوة واستكباراً؛ وتنبِّهنا إلى ضرورة اتباع استراتيجية راقية ومحترمة أثناء التخاطب والتعامل مع الجميع، وتشير إلى ضرورة الكلام في كل موقف وفق أصوله.

وأما حال اللطف والرِّقَّة واللين التي كانت تحيط بحياة حبيبنا ﷺ فيصفها الله ﷻ بآية كريمة إذ يقول:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

وقد لخَّص النبي ﷺ الصفات الواردة في الآيات التي مرَّ ذكرها بـ"كلمة طيبة" حيث قال:

"اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة". (البخاري، الأدب، ٣٤)

ونستطيع تلخيص كل هذه الصفات في قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (إبراهيم: ٢٤- ٢٥)

ويمكننا أن نختصر "الكلمة الطيبة" الواردة في الآية الأخيرة والتي تشرح الآيات التي أشرنا إليها في الأعلى بأنه تذكير بضرورة التزود بالعلم، والفكر، والأعمال الصالحة...

وكما بيَّن لنا العالم المتصوف إبراهيم حقي أرضرومي رحمه الله أن ديننا العظيم يعلِّمنا "حسن الخلق والمعاملة والمعاشرة مع كافة الخلق". إن ديننا يريد منا إخضاع أيدينا وأرجلنا وأعيننا وآذاننا وألسنتنا للتربية. يريد أن يكون لسان المسلم كخلية النحل لا يخرج منها إلا العسل. إنه يقول: ليكن قولك كريماً، بليغاً، لطيفاً، ليناً، ميسوراً. يقول: ليكن لساناً حلواً طيباً مع الجميع.

لقد أهدى إلينا ربنا ﷻ القرآنَ الكريم الذي هو أحسن الكلام؛ وأخبرنا النبي ﷺ بلسانه المبارك بأن الكلمة الطيبة نوع من أنواع الصدقة.

وصفوة الكلام أننا مكلَّفون بأصدق القول وألطفه وألينه، وإلقائه بالأسلوب الأشدِّ تأثيراً.

الشرعنة إقحام أمر في دين الله

عندما نفتتح حديثنا بعنوان الشرعنة، ينبغي أن نتذكر منزلة الله ﷻ والعبد، فالشرعنة تجاوز العبد لحدود عبوديته وادعاؤه بعدم تجاوزها.

أحمد طاش غتيرن: أستاذي الكريم؛ أودُّ إجراء حديث معكم بعنوان "الشرعنة". إن أساس الأمر هو مسألة تطبيق الإسلام في الحياة والعيش وفق أحكامه. فالمسلم يواجه في كل الأحوال الحياتية مسؤوليةَ تطبيق الإسلام، ولكن يصادف المرء أحياناً أجواء تسهِّل من أمر تطبيق الإسلام واتباع أحكامه، وأحياناً يكون في أجواء تجعل من مسألة اتباع الأحكام الإسلامية بالغة الصعوبة، لا سيما في المؤسسات والمنظمات التي لا تراعي في الوضع الراهن المعايير الإسلامية في تأسيسها ومبادئ عملها. وحتى في مثل هذه الأحوال يُطالَب المسلم بمراعاة المبادئ والأحكام الإسلامية وتطبيقها، ولكن تتشكل لديه هنا حالة نفسية مثل الامتناع عن تطبيق الإسلام، وربما العجز عن تطبيقه، و إيجاد ذريعة لعدم تطبيقه. وتعمل نفس الإنسان وأهواءه أيضاً بصورةٍ ما على تحضير الأرضية التي من شأنها تصعيب تطبيق الإسلام. وعلى سبيل المثال تكون الذريعة: "في هذا العصر يتم تطبيق الإسلام بهذا القدر فقط. إننا لا نستطيع تطبيقه أكثر من ذلك، فما الذي نستطيع فعله؟ ينبغي تفسير الإسلام في هذا العصر بهذا الشكل". كل ذلك ليجد المرء ملاذاً له من تطبيق الإسلام. فماذا تقولون في ذلك؟ وهل يكون هذا الأمر مشكلة في علاقة المسلم مع الإسلام؟

نور الدين يلدز: دعنا يا سيدي نوضح قليلاً معنى كلمة "الشرعنة"، كي لا نحتاج إلى معجم.

إن المشروع يعني الأمر الذي وضعه وأقرَّه الشَّرع. فعبارة: "هذا مشروع، وذاك غير مشروع" تعني في

الأساس أنه موافق للشرع، وغير موافق للشرع. والعلاقة غير المشروعة تعني العلاقة غير الموافقة للشرع. وبالطبع إن المقصود بالشرع أمر آخر ويختلف من شخص إلى آخر. وإذا ما نظرنا إلى الشرعنة بهذا المعنى الذي ذكرناه فإنها تعني: إقحام أمر في دين الله هو ليس فيه بالأساس.

طاش غتيرن: يعني شرعنة أمر غير مشروع.

يلدز: لأن المشروع مشروعٌ بطبيعة الحال. وعلى سبيل المثال دعونا ننطلق من أبسط وأكثر مثال شيوعاً وانتشاراً: وهو التدخين؛ فماذا تعني شرعنة التدخين؟ إنها تعني إدخال التدخين ضمن صنف الأمور الحلال والمباحات. وكذلك ماذا تعني شرعنة الضرب والظلم؟ إنها تعني أن الضرب والظلم كانا من الجرائم، وبالشرعنة سوف يخرجان من دائرة الجريمة. ومثال آخر الربا، فعندما تشرعِن الربا، فإنك تشرعن الحرب على الله ورسوله، إذ إن الربا حرب على الله ورسوله، وأنت جعلتها مشروعة من خلال الشرعنة، وبالتالي تخرج من صفة الحرب. ولذلك عندما نفتتح حديثنا بعنوان الشرعنة، ينبغي أن نتذكر منزلة الله تعالى والعبد. فالشرعنة تجاوز العبد لحدود عبوديته وادعاؤه بعدم تجاوزها.

لعلكم تذكرون كيف أن الشيخ تيمور طاش رحمه الله كان ينفعل ويحتد أثناء إلقاء المواعظ والخطب. وعلى سبيل المثال كان يقول الشيخ: لمَ تجلس على المقاعد التي هي إعلانات للمصرف الفلاني؟ هل يليق بالمسلم الجلوس على مقعد في الشارع أو الحديقة وهو يعلم أنه إعلان ودعاية للمصرف الفلاني؟

طاش غتيرن: كان يستنكر ذلك.

يلدز: إذاً؛ كان هناك دقَّة في هذه الأمور في سبعينيَّات القرن الماضي، إذ كانوا يقولون: هل يجوز الجلوس على مقعد عائد لأحد المصارف.

طاش غتيرن: وكأنهم كانوا يقولون لا تقترب من المصارف حتى بهذا القدْر.

يلدز: أما الآن فلم يعد أحد يسأل حتى عن الحساب المصرفي لأي مصرف.

طاش غتيرن: إذاً؛ حصل اندماج مع الأمر.

يلدز: نعم، جميل جداً. لقد ظهر شيءٌ يشبه الاندماج والتماهي. وقبل الدخول إلى هذه الموضوعات لا بد من بيان مسألة هي: إن الأوامر والنواهي التي يحتويها ديننا الإسلامي هي ما نسميها العزائم التي أرادها الله تعالى من المسلمين. وهناك إضافة إلى ذلك أمور تم التساهل بها في حالات الضرورة التي يعجز فيها العبد عن تعبد الله تعالى، أو يكون هناك صعوبة بالغة في ذلك، ونسمي هذه الأمور بالرخص.

إن مجمل الدين وأساسه عزيمة، فالعزيمة هي في داخله. ولكن الله تعالى يعلم منذ أن خلقَ الإنسانَ بأنه معرَّض للمرض والشدائد وحالات الضرورة التي يمر بها، لذلك شرَّعَ له مجموعة من الرخص. فكما أن الله تعالى هو الذي يفرض عزائم الدين، أي يفرض أوقات الصلاة الخمسة وأداءها قائماً، وصيامَ رمضان ويجعل كل ذلك من العزائم؛ فإنه كذلك يُشرِّع تسهيلات في أوامر الدين ونواهيه سواء فيما يتعلق بالصلاة، أو الصيام، أو الربا، أو شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير.

طاش غتيرن: أي إن الرخص هي أيضاً ضمن الإطار والحد الذي بيَّنه الله تعالى.

يلدز: أجل؛ فالعزيمة من الله، والرخصة من الله. والرخص ضمن الإطار الذي حدَّده ربنا عز وجل. فليس من المقبول والمعقول أن يضع الله الخطوط الرئيسة، ويأتي العباد ليحددوا التسهيلات والرخص.

طاش غتيرن: يعني ذلك أنها مختلفة عمَّا هو مُشرعَن...

يلدز: على ماذا أطلقنا تسمية الشرعنة؟ قلنا بأنها إدخال أشياء أوجدناها حديثاً إلى الدين من تلقاء أنفسنا. أريد أن أضع هذه المبادئ الأساسية الثلاثة. ماذا يعني المشروع؟

طاش غتيرن: تقصد أن الرخصة ليست مجالاً للشرعنة..

يلدز: أجل، ليست كذلك. إن الله تعالى قد حدَّد بكل الأحوال أبعاد هذه المسألة والأمور التي يمكن التساهل فيها.

طاش غتيرن: إذاً؛ ينبغي تمييز حدود الرخص وحدود الأمور المُشرعَنة.

يلدز: جميل جداً. إن الشيء الذي علينا فعله في الوقت الحالي أن نتعلم كيفية صلاة المريض، كما نتعلم فرائض الصلاة. أي إن كان الله تعالى قد جعل رخصة في مسألة ما، فينبغي لنا تعلم تلك الرخصة أيضاً. فاستخدام هذه الرخصة مسألة إيمان، أما لماذا تستخدم، ولماذا لا تُستخدم فذلك بحث آخر.

إن ما نفعله أولاً هو هذه العزائم، أي أوامر الله تعالى ونواهيه الأساسية، ثم يأتي بعد ذلك دور التسهيلات على تلك الأوامر والنواهي.

طاش غتيرن: مجالات التيسير...

يلدز: نعم مجالات التيسير... مثل عدم صيامَ المسافر في شهر رمضان. وأطرح هنا مثالاً آخر: في أيامنا هذه نعرف أن هناك مهنة السائق، وهذه المهنة ليست بالمهنة الجديدة كلياً، إذ كان يوجد في السابق ما يُعرَف باسم مُسيِّر القوافل. فكان هناك رجال عملهم إدارة القوافل والإشراف على رحلتها؛ أي إنهم يعرفون الطرق التي تسير عليها القوافل في الجبال والصحاري.

طاش غتيرن: أي مثل السائق.

يلدز: تماماً مثل السائق. وتعلم أن الصيام يُعد أحد أركان الإسلام الخمسة، وواحداً من أعظم أوامر الله تعالى. ولا بد من الالتزام به في شهر رمضان. فإذا عمل سائق على حافلة تقوم برحلات بين المحافظات...

طاش غتيرن: كالمسافر الدائم...

يلدز: وإن كانت إجازة الرجل لا تصادف شهر رمضان. فهل من الطبيعي أن نسأل السؤال الآتي: ألن يصوم الرجل حتى يصل سن التقاعد؟. يمكن له ألا يصوم.

طاش غتيرن: لقد وضع الله تلك الرخصة.

يلدز: نعم وضعها، وهذه ليست مسألة شرعنة، وإنما هي حفظ الخطوط المشروعة واستخدامها. حسناً، هل سيقضي الرجل عمره كله بلا صيام؟ أقول :إن استخدام الرخصة التي وضعها الله تعالى ليس بذنب ولا جريمة. فإن كان أمره مباركاً، فإن رخصته أيضاً مباركة. ماذا يقول الحديث النبوي الشريف؟ إنه يقول: "إن الله يحب أن تُؤتَى رُخَصه كما يحب أن تُؤتَى عزائمه".

هذه نقطة مهمة للغاية. فالحدود التي رسمها الله تعالى، ومسائل التيسير والرخص التي بيَّنها واضحة لا لبس فيها، وأساساً عندما يتم النظر إلى هذه الرخص فقهياً وفي كافة المذاهب يتبين بأنها تُعد من أكبر النعم للعباد. إن عدم معرفتنا باستخدام هذا النوع من الرخص يدفعنا إلى أعمال غير مشروعة.

إن مجمل الدين وأساسه عزيمة، فالعزيمة هي في داخله. ولكن الله تعالى يعلم منذ أن خلقَ الإنسانَ بأنه معرَّض للمرض والشدائد وحالات الضرورة التي يمر بها، فالعزيمة من الله، والرخصة من الله. والرخص ضمن الإطار الذي حدَّده ربنا عز وجل. . فليس من المقبول والمعقول أن يضع الله الخطوط الرئيسة، ويأتي العباد ليحددوا التسهيلات والرخص.

لدي نقطة رابعة أيضاً أريد عرضها يا أستاذي الفاضل، ثم بعد ذلك ندخل إلى موضوعنا. أحياناً يضرب الله ﷻ لنا الأمثال بالأمم السابقة مثل اليهود والنصارى. فهؤلاء كان لديهم كتب سماوية مقدسة؛ أي إنَّ اليهود كانوا أمة لها كتاب سماوي هو التوراة. وكان لهم أنبياء يدعونهم إلى الهداية.

طاش غتيرن: إذاً؛ لقد وصلت المعايير والمبادئ التي وضعها الله تعالى إليهم أيضاً.

يلدز: نعم، وصلت. وتعلمون أن الأمانة بعد نبينا ﷺ بقيت لأبي بكر ﷺ، بقيت لرجل ليس بنبي. أما اليهود فقد تعاقبت بعثة الأنبياء إليهم، ولم يحتاجوا أبداً إلى رجل مثل أبي بكر.

طاش غتيرن: كان هناك نبي كلفه الله مباشرة بالنبوة والرسالة...

يلدز: كانت أمانة أمتنا بيد الصحابي أبي بكر ﷺ. فأبو بكر كبير هذه الأمة وقد تسلم الأمانة من النبي ﷺ، والحمد لله تعالى حافظ عليها كما هي. أما اليهود فقد أكملوا مسيرة حياتهم بعد موسى عليه السلام مع نبي آخر. فعلى سبيل المثال أُرسِلَ إليهم يوشع عليه السلام، إذ جاء يوشع عليه السلام بعد موسى عليه السلام مباشرة.

طاش غتيرن: إذاً؛ كان هناك نبي من أنبياء الله يقودهم.

يلدز: أجل، كان دائماً هناك نبي. ومع ذلك حرفوا وشرعنوا من تلقاء أنفسهم، ونقدم هنا أجلى مثال لهذه الشرعنة والذي يتحدث عنه القرآن الكريم، وقد كان أصحاب هذه الشرعنة رجال دينهم. فماذا يقول القرآن الكريم؟ إنه يقول: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ (النساء: ٤٦)

الحدود التي رسمها الله ﷻ، ومسائل التيسير والرخص التي بيَّنها واضحة لا لبس فيها، وأساساً عندما يتم النظر إلى هذه الرخص فقهياً وفي كافة المذاهب يتبين بأنها تُعد من أكبر النعم للعباد. إن عدم معرفتنا باستخدام هذا النوع من الرخص يدفعنا إلى أعمال غير مشروعة.

فقد حُرِّمَ عليهم صيد السمك يوماً واحداً، فحاولوا التحايل على هذا المنع، إذ جعلوا شِباكاً في البحر ودفعوا إليها السمك يوم التحريم، وأخذوا يخرجونها في يوم آخر. إن أسوأ نموذج للشرعنة هو ما قام به اليهود الذين تلاعبوا بالتوراة وحرفوها. وكذلك قساوسة النصارى الذين حرفوا الإنجيل.

طاش غتيرن: يضع القرآن هؤلاء موضع الأرباب...

يلدز: طبعاً فلأن أعمال الشرعنة هذه قد وافقت أهواءهم ومصالحهم فقد أخذوا يقدِّسون الحاخامات والباباوات الذين قاموا بهذه الأعمال. فلماذا البابا؟ لأنه مناسب، أي إن البابا أو الحاخام ملائم للسوق. فهو لا يكسر قلباً، ولا يزعج غنياً ولا امرأة.

طاش غتيرن: لقد كان الذين يقومون بأوضح أعمال الشرعنة في تلك الفترة هم رجال الدين.

يلدز: نعم فالفساد يبدأ من هناك، من قمة الهرم. في شريعتنا ليس هناك ما يعرف برجل دين، فكل إنسان هو رجل دين.

طاش غتيرن: فماذا عنا أستاذي الفاضل؟

يلدز: لو تسمح لي بإعادة التذكير بالنقاط الأربعة التي ذكرناها، وتعريف الشرعنة باختصار. أولاً: الشرعنة تعني الإضافة على الشريعة. ثانياً: نحن بشر، ونحن مبتلون بمرض التقليد وفقاً لطبيعتنا البشرية، ونتعلم ونعيش حياتنا من خلال التقليد والمحاكاة.

لذلك فكما أن الإنسان العاقل يشعر نفسياً بأنه قد جُنَّ بالفعل إذا ما رددنا على مسامعه ذلك أربعين يوماً، فكذلك يمكن أن ينقلب الأمر غير المشروع في نظر الإنسان إلى أمر مشروع إذا ما تمَّ إظهاره كذلك أمام عينيه أربعين مرة. ولهذا نقول بإلحاح:

"ينبغي أن يتمتع الذين يتعاملون مع مسائل الدين بدقَّة بالغة".

وقلنا في النقطة الثالثة: يوجد في الشرع ما يُعرف بالعزيمة والرخصة. فالعزيمة هي الحدود الأساسية التي وضعها الله تعالى. وأما الرخصة فإنها أبواب التوسعة التي شرَّعَها لتلك الحدود، فهي تبقي على الأصل ولا تلغيه. ولكنها تيسيرات وتسهيلات يمكن اللجوء إليها واستخدامها في حالات الضرورة. لذلك فكما أن الله تعالى هو الذي وضع الأصول، فكذلك هو الذي وضع التسهيلات والرخص. فليس من حق المشايخ ولا الفقهاء وضع مثل هذه التيسيرات. فمثلاً لم يكن الإمام أبو حنيفة رحمه الله مَن أوجد قسم الرخص في الدين، وذلك لأن التسهيلات موجودة أصلاً في الدين ذاته. فالمجتهد هو من يكتشف أمراً موجوداً في الدين، ويحاول أن يحدد فيما إذا كان من هذا القسم أو ذاك. والمجتهد لا يشرِّع أو يضع الدين، والاجتهاد ليس إضافة شيءٍ إلى الدين هو غير موجود فيه.

وأما النقطة الرابعة فكانت بيان أن الشرعنة- أي إضافة شيءٍ إلى الدين ليس فيه وخلقُ تصوُّرٍ بأنه من الدين- ليست جريمة بسيطة، وإنما جريمة كبيرة، حيث كانت سبباً لإلغاء اليهودية والنصرانية ونسخهما، وإحلال الإسلام محلهما. فاليهود على وجه الخصوص لم ينسوا الدين في يوم من الأيام، وأما في النصرانية فقد مرت فترات نُسِيَ فيها الدين. واليهود كلهم متدينون حسب مفهومهم وقاموسهم، إذ ما يزالون يدَّعون العيش في دولة دينية. إلا أن جريمة اليهود وجريمة النصارى هي تجرؤهم على إضافة ولو كلمة واحدة إلى كتاب الله من عند أنفسهم؛ وهذه جريمة عظيمة.

طاش غتيرن: ليس من شأن العبد وضع الأحكام.

يلدز: أحسنت، ليس من شأن العبد. فواجب العبد الخضوع والطاعة قدر استطاعته. فعندما يبدأ العباد بشكل فردي أو جماعي مثلاً بإنشاء مجالس، أو هيئات وقفية، أو برلمانات ثم يعملون على وضع تشريع ما، وشرعنة أمور معينة فإنهم يكونون قد بدأوا بارتكاب جريمة. ولذلك فإن على العبد معرفة حده، ينبغي أن يعلم بأن المصائب العظيمة التي حلت بالأمم السابقة كانت بسبب سلوكهم هذا المسلك، إذ إنهم أضافوا أموراً جديدة إلى دين الله، وجعلوا بعض الأشياء مشروعة على الرغم من أنها غير مشروعة، بقولهم أنها بعد شرعنتها أصبحت مشروعة، وظلوا على هذا المنوال حتى ألغى الله تعالى ذلك الدين، ونسخه، ويعلموا بأن ذلك كان جريمة عظيمة أقدم عليها أولئك السابقون. ونحمد الله تعالى أن قرآننا العظيم لن يتعرض لمثل هذا الخطر، ولا يزال القرآن قائماً ومحفوظاً كأول يوم نزل فيه.

يقول الله ﷻ في كتابه العزيز بشكل واضح وصريح:
﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ﴾.
فالربا جريمة كبيرة لدرجة إعلان الحرب على الله ﷻ. فعندما تشرعِن الربا، فإنك تشرعن الحرب على الله ورسوله.

نقطة السويداء

أدهم جبَجي أوغلو

عندما يتم بحث خلافة الإنسان في الدنيا يُقَال عنه: "مركز الكون". ثم عندما يُسأَل عن مركز الإنسان فتأتي الإجابة بأنه: "القلب".

إن القلب هو المكان الذي نزل عليه القرآن الكريم. أي إنه المكان الذي أقام الله تعالى فيه نقطة الاتصال مع الإنسان، لذلك فهو أيضاً المكان الذي يتواصل فيه العبد مع ربه.

ويشبِّه القرآن الكريم حياة الإنسان بالماء المنزل من السماء: ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ (الكهف: ٤٥)

إن أول مكان وصل إليه ماء الحياة في كيان الإنسان هو القلب الذي يعد مركز الإنسان. لذلك فإن ذكر الله في الطرق الصوفية يكون بالقلب. والذكر بعبارة أوضح وأجلى رحلةٌ روحانية إلى المكان الذي ينبع منه ينبوع الدرويش، أي إلى الأول. هناك يوجد الله سبحانه وتعالى خالق كل شيءٍ، والخارج عن حدود الزمان والمكان؛ أي يوجد الإيمان والعشق. جاء في الحديث القدسي: "ما وسعتني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن". (العجلوني، كشف الخفاء، ج، ٢، ص، ٢٢٩، الحديث رقم: ٢٢٥٦)

فالتدريب الذي نجريه على لطائف القلب بالذكر إنما هو عملية رجوع إلى الله ﷻ، لأن ذكر الله تعالى وفقاً للآية الكريمة:

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦). هو الموت، أي الرجوع إلى أصلنا، إلى ربنا ﷻ.

إذاً؛ فنحن بدأنا بهذه الصورة من الله تعالى، أي إننا ابتدأنا رحلتنا منه بدلالة الآية القرآنية:

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (الحجر: ٢٩)

وسوف نصل إليه في النهاية. ومكان البدء والانطلاق إنما هو لطيفة القلب، فعندما يبدأ القلب بالعمل، تبدأ الحياة. وفي نهاية المطاف يتوقف القلب، فتتوقف الحياة. فالإنسان المتوقف قلبه- سواء القلب المادي أم المعنوي- إنما هو إنسان ميت، والسلام...

القلب هو المكان الذي تندمج فيه الحياة مع الموت. وهنا نود التعريج على أمر مثير وبيانه: من المعلوم أن لطيفة القلب التي هي أمر معنوي تُعد نقطةً مركزيةً تعبر عن البداية والنهاية. وتبدو في القلب المادي مركزيَّة مشابهة لما هو قائم في القلب المعنوي. إذ اكتشف علم الأجنة الحديث من خلال

مراقبة نمو الجنين وتطوره في رحم الأم أن أول عضو يتكوَّن في كيان الجنين إنما هو القلب وذلك في اليوم الثامن والعشرين من الحمل.

وهذه الأيام الثمانية والعشرين هي دورة شهرية. وأما الأعضاء الأخرى فتتشكل بعد ذلك. وفي النهاية تظهر العين وبؤبؤ العين أو سواد العين وذلك في الأسبوع السادس والعشرين أو السابع والعشرين.

ويُسمَّى البؤبؤ في اللغة العربية أيضًا "إنسان العين". وبناء على ذلك فإن الإنسان يبدأ بالقلب، وينتهي ببؤبؤ العين أو (بالإنسان).وهناك مجموعة من الآيات القرآنية التي تشير إلى هذا الأمر.

نريد في بحثنا هذا أن نتناول "سويداء" القلب المعنوي المرتبط أيضاً بالقلب المادي، والتي نلامسها بذكر الله ﷻ؛ أي نقطة السويداء العميقة للقلب، وسيكون بحثنا هذا على عدة محاور. ذلك أن تلك النقطة أو الثقب الأسود هو المكان الذي تبدأ وتنطلق منه إنسانيتنا الأصلية، وليس إنسانيتنا المادية.

١- نقطة السويداء لغةً:

ما هذه النقطة؟

تُرى ما هذه النقطة التي تُنفخ فيها أرواحنا عندما نصبح في الشهر الرابع داخل أرحام أمهاتنا، أي التي تربط الروح بالجسم، والتي تخرج منها أرواحنا وتدخل إليها عند الموت وأثناء النوم واليقظة كل ليلة ونهار:

﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٤٢)

ما النقطة التي نلامسها عند ذكر الله ﷻ؟

وما طبيعة هذا الشيء؟

دعونا نحاول معاً التوقف عندها وفهمها: لنبحث عن هذه النقطة من حيث اللغة أولاً:

إن عبارة النقطة السوداء متكونة من اسم (النقطة) وصفتها التي هي (السواد). وقد تم في هذه العبارة التأكيد على المعنى، وعلى كلمة "النقطة" باستعمال صيغة الصفة والموصوف. وتأتي كلمة النقطة في اللغة بمعنى: التعبير بوضوح من خلال ضبط الكلام بالحركات، وتنقيط الحروف، والجزء أو القطعة الصغيرة، والشيء أو الأمر القليل. (ابن منظور، لسان العرب، ج ٧، ص، ٤١٧)

وإذا ما تم النظر إلى الأمر بصورة عامة يتبين بأن النقطة تحمل لغةً معنى الصغر، والشيء الصغير والقليل، والجزء.

وأما كلمة السوداء والسواد فإنها في اللغة نقيض البياض؛ فتأتي بمعان كثيرة مثل: اسوداد الشيء وتغير لونه إلى الأسود، وسواد اللون في جلد الشخص، وسواد القوم: معظمهم. وسواد الناس: عوامهم وكل عدد كثير. وخطوط اليد والجبهة، ووجه الإنسان، والثعبان الكبير الأسود، والأسودان أي: الماء والتمر، والليل والنهار. وحبة القلب. والخلف، والمؤخرة، والسواد: جماعة النخل والشجر لخضرته واسوداده؛ وقيل: إنما ذلك لأن الخضرة تقارب السواد. والسواد الألمُ الذي يحدث في الكبد بعد الإكثار من تناول التمر...إلخ. (ابن منظور، لسان العرب، ج ٣، ص، ٢٢٥-٢٢٨)

والأمر المثير للانتباه هو إطلاق السواد على المولود الأسود بصورة تُذكِّر بالولد القلبي الذي يلد بالذكر في القلب.

٢- النقطة السوداء اصطلاحاً

دعونا الآن نرى المعنى الاصطلاحي الذي تحتوي النقطة السوداء، وبتعبير آخر التجويف أو الثقب الأسود من الناحية التصوفية.

ولنتناول أولاً الأفكار المتعلقة بالموضوع لابن برجان الأندلسي. ونورد عنه العبارات الآتية المتعلقة بالموضوع الذي نتحدث عنه، حيث يقول:

"يقول بعضهم بأن في القلب تجويفَين. وأحد هذين التجويفين/ النقطتين ظاهر ويسمونه "الفؤاد"، وهو محل العقل والإسلام. (أي مفتوح على الخارج/ الدنيا). وأما التجويف الثاني فهو باطني، ويسمى "القلب". وفي هذا تكون البصيرة، والسمع، والبصر، والفهم. لأن التجويف الثاني محل الإيمان ومفتوح على الله تعالى. وإن "الود" موجود في فؤاد القلب. وعندما يدخل "الود" إلى باطن القلب فيسمى "الحُب".

(ابن برجان، شرح أسماء الله الحسنى، ج ٢، ص، ٣١١)

وهنا المحل الذي نزل عليه القرآن، والمكان الذي تدخل منه الروح إلى البدن وتخرج، إنه النقطة/ التجويف الأسود الذي في القسم الثاني والذي يشكل باطن القلب. أي إن هذا التجويف الأسود هو الذي ورد ذكره في القرآن بخصوص نزول الوحي ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ﴾ (الشعراء: ١٩٣- ١٩٤)

أي إن هذا باب مفتوح على الله والإيمان خارج حدود الزمان والمكان. وقد أطلق الحلاج في كتاب التصوف اسم "الباب" على هذا الجانب الثاني للقلب. (أدهم جبه جي أوغلو، معجم مفاهيم ومصطلحات التصوف، مادة النقطة السوداء.)

نود أن نقول قبل بيان الآراء المتعلقة بالنقطة السوداء بأن هذه النقطة واحدة فقط في الصدر. أي إذا كانت بُنية قلبنا مؤلفة من خمس طبقات متداخلة فإن النقطة السوداء هي باب الدخول لهذه البُنية.

إن هذه النقطة السوداء حسب قول نجم الدين داية هي محل المكاشفة الغيبية في القلب.(نجم الدين داية، مرصاد العباد، طهران ١٤٥٣، ص، ١١٠)

إن بداية كل اللطائف التي في الصدر هي هذه النقطة السوداء. وأما القسم المفتوح على الدماغ باعتباره ظاهري، والذي عبر عنه ابن برجان بالفؤاد فإنه مفتوح على الدماغ، ومن هناك على الدنيا المحدودة بحدود الزمان والمكان.

يقول ابن برجان الأندلسي: "يقول بعضهم بأن في القلب تجويفَين. وأحد هذين التجويفين/ النقطتين ظاهر ويسمونه "الفؤاد"، وهو محل العقل والإسلام. (أي مفتوح على الخارج/ الدنيا). وأما التجويف الثاني فهو باطني، ويسمى "القلب". وفي هذا تكون البصيرة، والسمع، والبصر، والفهم. لأن التجويف الثاني محل الإيمان ومفتوح على الله تعالى. وإن "الود" موجود في فؤاد القلب. وعندما يدخل "الود" إلى باطن القلب فيسمى "الحُب".

وأما نقطة القلب السوداء فهي جانبه المفتوح على الله والمتحرر من قيود الزمان والمكان. فالمكان أو القلب الذي قال الله تعالى بشأنه: "ما وسعتني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن" هو هذه النقطة.

وفي الوقت ذاته فإن هذه النقطة تسع أيضاً الكون كله وهو مطوي. إن تلك النقطة هي القلب الذي نزل عليه القرآن الكريم والذي يُعد أصل الإنسان المباشر.

وإضافة إلى ذلك كله عندما يتحدث مير محمد نعمان الذي يُعد أحد كبار طريق التجديد الرباني عن لطيفة (الأخفى) فإنه يقول بأن مكانها في قفا الرأس، في نقطة السوداء/ سويداء الدماغ. (مير محمد نعمان، رسالة السلوك، كاراتشي ١٩٦٩، ص، ٩؛ راجع أيضاً: نجدت طوسون، الإمام الرباني أحمد السرهندي، اسطنبول، ٢٠٠٩، ص، ٥٨)

الفتنة الابتعاد عنها

الأستاذ: علي رضا تَمَل

تعني كلمة الفتنة لغوياً تذويب الذهب أو الفضة في النار لتنقيتهما من الشوائب. وكما أنه يظهر جوهر المعادن عن طريق صهرها في النار، فإن جوهر الإنسان كذلك يظهر من خلال سلوكه وتصرفه مع الأحداث العظيمة والمريرة. تُستخدم كلمة الفتنة عموماً بمعنى الامتحان. فالإنسان يتعرض لمجموعة من الشدائد والمواقف الصعبة المادية والمعنوية التي تحدد سلوكياته أو ردَّة فعله السلبية والإيجابية سواء على الصعيد الفردي أو على الصعيد الجماعي. فهذه المشاكل والمصاعب هي كمبرَد الذهب، وتظهر طباع الإنسان وشخصيته الأصلية بحسب المواقف التي يتخذها.

والفتنة وفقاً لرأي الإمام البركاوي هي إيقاع الناس في الاضطرابات، والاختلافات، والنزاعات، والبلايا بغير فائدة مشروعة. إن الفتنة قدَرُ البشر سواء على الصعيد الفردي أو الجماعي، وسوف يستمر هذا القدر إلى يوم القيامة.

والأصل هو عدم إتاحة أدنى فرصة أو مجال لحدوث الفتنة، وإذا ما حدثت فيجب اتخاذ موقف المسلم الصادق تجاهها.

لقد حذَّرَ النبي عليه الصلاة والسلام أمته كثيراً من الفتن التي سوف تحدث، وبيَّن لهم ما الذي عليهم أن يفعلوه إذا ما وقعت. وعَدَّ إيقاظ الفتنة النائمة موجباً للعنة، إذ قال:

"الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها".(العجلوني، كشف الخفاء، الحديث رقم: ١٨١٧)

الفتنة في البدء مثل الجمر تحت الرماد. وإخراج الجمر الكامن داخل الرماد لإحداث الفتنة، ودفع الوسط الاجتماعي إلى النار يشبه الاقتراب من النار بالكير والنفخ فيه. إن الذين يعملون على إطفاء الحريق يستخدمون الماء، وأما مثيرو الفتنة فهم مثل الذين يسكبون الزيت على النار. وينبغي أن يكون موقف المسلم من الفتنة مثل موقف طيور الحمام التي حملت الماء في مناقيرها واتجهت لإطفاء نار نمرود التي أُعِدَّت لحرق سيدنا إبراهيم عليه السلام.

إن واجب كل مؤمن الحذرُ من أن يكون سبباً في إحداث الفتن التي من شأنها فتح أبواب كل أنواع الشرور وعظيم المصائب، مثل الخوف، والهلع، والاضطرابات، والمجازر الوحشية، والإرهاب، والإلحاد، بل عليه فعل العكس تماماً، أي أن يبذل غاية جهده لإخمادها والقضاء عليها. وأما الذين لا يستطيعون فعل شيءٍ لإخماد الفتن فعليهم على أقل تقدير الالتزام بالصبر، والابتعاد عن الفتنة. وإذا لم يتداعَ الناس إلى وأد الفتنة والقضاء عليها وهي في طور اشتعالها فإنها سوف تلتهم المجتمع بأسره، فتحرق الأخضر واليابس، والظالم والمظلوم.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ (الأنفال: ٢٥)

إن الفتن من شأنها القضاء على الأمن في المجتمع سواء الأمن على الأموال أم الأنفس والأرواح. إذ تعم الفوضى والاضطراب وانعدام الأمان والاستقرار. ويتعذر في الوسط الذي تسوده الشبهات والخوف وانعدام الأمن والفوضى تحقيقُ أي تقدم وتطور. فالفتنة من هذا الجانب أشد وأسوأ بكثير من القتل. ويبين مولانا عز وجل خطورة الفتنة وبشاعتها بقوله:

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة: ١٩١)

وفي الواقع هناك فتن شديدة لا يحتملها الإنسان حتى إنه يتمنى الموت كي يرتاح من أهوالها. والفتنة تشرع الأبواب أمام القتل والمجازر الجماعية.

وقد أخبرنا النبي عليه الصلاة والسلام بما ينبغي اتخاذه عند حدوث الفتن إذ قال:

"إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمناً، ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً، ويصبح كافراً، القاعد فيها خير من القائم، والماشي فيها خير من الساعي". (أبو داوود، الفتن، ٢؛ الترمذي، الفتن، ٣٣)

إن الأصل عند السعي لإخماد نار الفتنة هو التحرك بصدق ونية سليمة، وعدم الانجرار خلف الإشاعات، والتفتيش عن الهدف الخفي للأحداث، والالتزام بالحيادية والموضوعية بالابتعاد عن مشاعر المصلحة، والمحبة، والكراهية. فلا يليق بالإنسان المسلم نشر الأقاويل الكاذبة في كل مكان، والإقدام على الأعمال التي من شأنها إثارة الجماهير. حيث يقول رسولنا الكريم ﷺ:

"كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع". (مسلم، المقدمة)

ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٦)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات: ٦)

إن وسائل الإعلام والاتصالات التي اتسعت وازدادت إمكاناتها اليوم يتم استغلالها واستخدامها كسلاح مرعب في إثارة الفتن. ويتم في هذا الشأن استهداف أمن المجتمع واستقراره من خلال خلق جو تسوده الاضطرابات والفوضى، وانعدام الأمن والأمان. فلا بد من القضاء على مخاطر العالم الافتراضي، والحد من تأثيراته وألاعيبه، وذلك بتثقيف شعوبنا وتعليمهم على استخدامه بالاتجاه الإيجابي، وتقوية الجانب النفسي لديهم لمواجهة هذا النوع من المكائد والألاعيب. وفي هذا المجال تقع مسؤوليات وواجبات مهمة للغاية على عاتق رجال الدولة، والإعلام، والقائمين على العملية التعليمية، والقيادات الدينية.

ينتشر في عصرنا هذا وعلى نطاق واسع تثبيت الكاميرات المخفية، وعمليات التنصت على المكالمات بصورة غير قانونية، ومحاولات التشهير والفضائح من خلال برامج (المونتاج) والتي تستهدف فضح الحياة الخاصة للأفراد، وأصبحت مسألة حماية الحقوق الشخصية أمام المكائد والمؤامرات التي تحاك ضدها بالغة الصعوبة. فينبغي لمواجهة هذه السلبيات المقيتة إعلان تعبئة عامة وواسعة للتربية الأخلاقية، إلى جانب اتخاذ التدابير الإدارية والقانونية والتقنية. إذ إن مصدر الكثير من المشاكل هو الضعف الروحي والأخلاقي. وينبغي التوضيح لأجيالنا أهميةَ حقوق العباد، ومدى خطورة الإشاعات، والافتراءات، والغيبة والنميمة، والسخرية والاستهزاء بالآخرين، والعاقبة الوخيمة التي تتسبب بها هذه الأعمال.

ولا بد في موضوع الحيلولة دون حدوث الفتن أن يلتزم رجال الدولة والقيادات الدينية بشكل خاص بالحذر الشديد في تصرفاتهم وتحركاتهم بتجاوز نقاط الضعف النفسي مثل الشهوة، والشهرة، والثروة، والسعي في سبيل تحقيق مصلحة المجتمع بحال من نكران الذات، وذلك لأنهم يعدون مثلاً للمجتمع من كل جانب.

فلنتأمل في موقف سعد بن عبادة نموذجاً حياً لعدم التحول إلى أداة لإثارة الفتنة:

من المعروف حادثة اختيار الخليفة عقب وفاة النبي عليه الصلاة والسلام وانتقاله إلى جوار ربه. كان الأنصار يريدون مبايعة سعد بن عبادة خليفةً لهم، وكانوا يرون أنفسهم أصحاب حق في ذلك. ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه كل العرب في شبه الجزيرة العربية أعداءً للنبي عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين في مكة، فتحَ الأنصار لهم أحضانهم، وتقاسموا معهم كل ما يملكون. ولكن لما رأوا بأن المهاجرين لا يؤيدونهم في هذه المسألة قالوا:

"منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش".

فقام أبو بكر رضي الله عنه الذي يُعد من المهاجرين، فتكلم وأشار إلى أمر دقيق. إذ أشار إلى أن لأهل قريش مرجعية وسلطة قوية لدى العرب بسبب مكة والكعبة. وكان من الأفضل أن يكون الخليفة من قريش لضمان السلم والأمن.

وفي النهاية أدرك الأنصار هذه الحالة السياسية الدقيقة، وتخلوا عن مطلبهم في الخلافة، ولم يعودوا

> إن واجب كل مؤمن الحذرُ من أن يكون سبباً في إحداث الفتن التي من شأنها فتح أبواب كل أنواع الشرور وعظيم المصائب، مثل: الخوف، والهلع، والاضطرابات، والمجازر الوحشية، والإرهاب، والإلحاد، بل عليه فعل العكس تماماً، أي أن يبذل غاية جهده لإخمادها والقضاء عليها.

بعد ذلك إلى مناقشة هذه المسألة مرة أخرى. فلو أن الأنصار لم يبدوا هذا التفاهم والليونة والتضحية، لحصلَ خلاف وتنازع على السلطة، ولَسُلَّت السيوف، ولربما نشبت حرب طاحنة بين الطرفين. وكان من الممكن أن تؤدي مثل هذه الحرب لو نشبت إلى إطفاء شعلة الإسلام.

إلا أن هذا الموقف العقلاني الذي أبداه الأنصار في هذه المرحلة الحرجة حالَ دون اشتعال فتيل الفتنة، وضمن انتشار نور الإسلام في العالم. ومع أن مرشح الأنصار للخلافة امتنع عن مبايعة أبي بكر، لكنه لم يصر على المطالبة بالخلافة، حيث هاجر من المدينة إلى الشام، وفضل الصمت تجاه مسألة الخلافة حتى وفاته، وذلك حذراً وخشية من أن يكون سبباً في إثارة الفتنة.

إن إثارة الإنسان لنزاع حول شيءٍ لا يستحقه ليست إلا حماقة وسخف. وأما تخلي الإنسان عن حقه الطبيعي للحفاظ على المصلحة العامة والحيلولة دون حدوث الفتنة فيعد فضيلة. ولذلك ينبغي للمرء التحلي بروح الأنصار.

ويصف الله تبارك وتعالى هذه الروح الأصيلة للأنصار بقوله:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩)

لقد كانت هناك فتن كبيرة بصورة مستمرة وذلك سواء في العالم أم في العالم الإسلامي. وما مقتل عمر، وعثمان، وعلي ﷺ، ومعركة الجمل، وصفين، وفتنة الخوارج، وحادثة كربلاء وغيرها من الحوادث الأليمة إلا من قبيل هذه الفتن الكبيرة.

وسوف تستمر هذه الفتن إلى يوم القيامة شئنا أم أبينا. فقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بهذه الحقيقة، إذ قال:

"لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيمَ قَتَل ولا المقتول فيمَ قُتِل" (مسلم، الفتن، ٥٦)

فالوسط المرعب الذي لا يُعرف فيه سبب الأحداث هو الوسط الذي تحدث فيه الفتنة. ففي مثل هذا الأوضاع والأوساط لا يُعرَف مَن هو المعتدي، ومَن هو صاحب الحق، وتنتشر فيها الجرائم المجهولة فاعلها، والأكاذيب، والشائعات، والاضطرابات، والعمليات التخريبية والاستفزازية، وتنقلب الأمور رأساً على عقب. فهذا المشهد هو مشهد انهيار المجتمع.

لا شك أن جريمة مثيري الفتنة كبيرة وعظيمة. ولكن جريمة الذين يتحولون إلى أدوات للفتنة، ويقذفون بالحطب على نيرانها ولو بغير علم ليست بالأمر الهين أيضاً. فواجب المؤمن هو سكب الماء على نار الفتنة، وليس الزيت. وإلا فإن الحريق سوف يحيط بالجميع ويلتهمهم، ويصبح كل شيءٍ حتى الآمال أثراً بعد عين. فينبغي أن يكون الجميع في يقظة تامة تجاه الفتن ومثيريها لحماية النظام الاجتماعي وقيمه المادية والمعنوية.

من دروس

الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو

التوبة النصوح

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(الأنعام: ٥٤)

يُقدِم الإنسان على ارتكاب المعصية والخطيئة لجهله، ثم بعد ذلك يتوب ويتراجع عن زلته ويصلح حاله وعمله. فالله تعالى غفور رحيم بحقه، و فرض على نفسه العفو لأمثاله. وجاء في الحديث النبوي الشريف:

"التائب من الذنب كمن لا ذنب له".

فالإنسان الذي يذنب بارتكاب معصية ثم يتوب توبة نصوح يعود طاهراً نقياً كأنه لم يذنب. يقول الحق ﷻ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(الزلزلة: ٧- ٨)

فينبغي للإنسان التقرب إلى الله والعمل على تحصيل محبته بالدخول إلى دائرة طاعته ومحاولة البقاء فيها قدر المستطاع. فنجاته مرهونة بذلك. يقول الله ﷻ:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(الفرقان: ٧٠)

فربنا ﷻ يشترط قبل كل شيءٍ التوبة. فلا بد أولاً من التوبة كي يكون الإيمان والعمل الصالح كاملين ومقبولين.

وقيل في تفسير هذه الآية الكريمة:

إذا ارتكب إنسان مئة سيئة تم تاب بصدق وإخلاص، وعمل عملاً صالحاً فيُعطى عليه مئة حسنة. وروي أن أحدهم رأى نفسه في المنام في اليوم الآخر وهو يُحاسَب على ذنوبه ومعاصيه، وأنه يعترف بصغائر ذنوبه، وينكر الكبائر. ولما رأى بأن هذه الصغائر تنقلب إلى حسنات، سارع إلى الاعتراف بالكبائر وأخذ يطلب الحسنات مقابلها أيضاً.

إن السبيل الوحيد للتقرب إلى الله تعالى بالنسبة للسائرين على طريق الحق هو دموعهم، لأن:

الدموع: تعبير عن حسرة الداخل، وتوسل العين وتضرعها.

الدموع: تحمل معنى الندم، ونوع من التوبة إلى الله.

الدموع: لسان العاشق الذي يثير بها أحاسيسه ومشاعره ويعبر عنها بغير كلام ولا صدى.

الدموع: ترجمان قلوب العارفين.

الدموع: طلب الاسترحام الذي يتقدم به العباد إلى ربهم طالبين العفو والمغفرة.

الدموع: تجلب رحمة الله تعالى.

الدموع: لآلئ العبودية التي يقدمها المذنبون والعصاة إلى ربهم بصدق وإخلاص.

الدموع: رأسمال عظيم يدخره العبد عند الله؛ هي سيد الاستغفار والتوبة النصوح التي تحمل في داخلها قطرات الرحمة والشفقة والمغفرة.

الدموع: غفران الذنوب.

الدموع: قطرات إخلاص المخلصين.

الدموع: حبل نجاة العاصين.

إن الاكتفاء بالدعاء والأقوال لا يقدم للعبد أي نفع، وإنما لا بد من العمل والعبادة لنيل الرحمة الإلهية. وبذلك يغفر الحق ﷻ لعباده ويعفو عنهم.

محمود سامي رمضان أوغلو، المصاحبة- ٦؛ ص، ١٦٨- ١٧٠.

من دروس

الشيخ موسى طوبّاش

الشكر على الروحانيات

إن الله ﷻ يسوق بعض عباده إلى طريق السير والسلوك الروحاني. وهؤلاء إذا ما سلَّموا أنفسهم لمرشد حقيقي، وساروا على طريق الإخلاص والاستقامة طالبين رضا الله تعالى، وحرصوا على الحلال والحرام، فإنهم سوف ينالون بإذن الله ﷻ ما يُرضِيهم بقدر ما يبذلون من جهد ويظهرون من ثبات. وعندما يقطعون أشواطًا في الدروس المعنوية، تستوطن في أنفسهم محبة الله وخشيته. وفي الوقت ذاته يرتقون في مختلف شُعَبِ الأخلاق الحميدة، مثل: الأدب، والحياء، والتواضع، والعفو، والرحمة، والسخاء، والكرم.

وأما إذا لم يتخلقوا بهذه الأخلاق، ولم يتصفوا بهذه الصفات الجميلة، فلا يُعدون مستفيدين من هذه الدروس على الوجه اللائق والمطلوب. وإذا انزلقوا إلى مزالق العجب والغرور بظن أنهم أتموا السير والسلوك، أي إذا عدُّوا أنفسهم في مرتبة أعلى من الآخرين وأهملوا واجبات العبودية، فإنهم يصبحون من الخاسرين.

إن واجب المؤمن الحقيقي ترديدُ عبارة "الحمد لله على كل حال" في كل أحواله وتقلباته، وذلك سواء كان في حال الضيق أم السعة، أو في حال المرض أم الصحة، والإحساس بمعنى هذه العبارة بقلبه ومشاعره.

يقول إبراهيم الدسوقي رحمه الله: "يا أخي، احذر من أن تدعي إذا عملت لنفسك أمراً خاصاً أنه بقدرتك. لأنه سوف تدعي بعد ذلك أنك امتلكت حقاً بجهدك، بينما الحال غير ذلك.

اعلم أنك إذا صمت فإن الله ﷻ هو الذي وفَّقك إليه.

واعلم إذا وقفت في الصلاة أن الله تعالى هو الذي مكَّنك من الوقوف على قدميك. وكذلك كل الأعمال التي تقوم بها. فإذا عملت عملاً فلأنه أراد لك أن تعمله.

والخلاصة أنك سوف تصبح بحال ترى فيها أن كل شيءٍ منه... فعندما تبصر شيئاً ستعلم بأنه هو الذي جعلك تبصر. وإذا دمت على هذه الحال وارتشفت الشراب المعنوي ستعلم أيضاً بأن الأمر منه. تقول هو الذي سقاني... ولا أحد غيره. وإذا تجنبت سوءً، وحفظت نفسك من شر واتقيته، لا بد أن تعلم بأنه هو من أكرمك.

وإذا ارتقيت درجات، وعلا مقامك... فاعلم بأنه هو من رفع شأنك، وزاد من درجتك.

وإذا بلغت أحوالاً مادية أو روحانية سامية، اعلم بأنه هو من أعانك على نيلها.

ليس لك من الأمر شيء... وليس عليك إلا الاعتراف بأنك عاص لا أكثر ولا أقل... وليس لك ما تحسن به إلى نفسك أبداً.

ومن أين لك الحسنة وهو الذي أحسن إليك؟ وهو الحاكم فيك، إن شاء قبلك، وإن شاء ردك".

ويقول أيضاً: "يا بني! إذا قضيت سنوات عمرك كلها بالصيام، ولياليك كلها بالصلاة والقيام... وامتلكت قلباً نقياً طاهراً، وعملاً خالصاً لله... فإياك أن تدعيه وتنسبه إلى نفسك... ولا تغرق العمل بالقول...

واعلم: بأنك مجرد عاص مفلس... ولا شيء غير ذلك. إياك أن تغتر بنفسك... وتنخدع بأكاذيبها... فكم من درويش ضلَّ وهلك لانجراره خلف هوى نفسه".

موسى طوبّاش، مجالس آلتن أولوك- ١، ص، ١٨٤- ١٨٧.

عثمان نوري طوباش

الاعتداء على المفاهيم الإسلامية

يقول أحد المفكرين: "إذا أردت تغيير أمة، فابدأ أولاً بتغيير كلماتها ومفرداتها!".

الإنسان يفكر بالكلمات، ويوسع آفاق فكره باللغة. لهذا لا يستطيع المرء اكتشاف طريقه نحو آفاق التفكير الإسلامي الواسعة بلغة ضُيِّقَ نطاق كلماتها ومفرداتها، أو تضاربت معاني مفاهيمها. يقول أحد المفكرين: "إذا أردت تغيير أمة، فابدأ أولاً بتغيير كلماتها ومفرداتها!".

فقد جرى خلال فترة من الفترات في البلاد الإسلامية تحميل كلمات ذات أصول دينية مثل "الشريعة، والطريقة، والتكية، والمرشد، والمريد، والذكر، والجهاد" بمعاني سلبية ومستهجنة، وجُعلت أسيرة لها في أذهان الناس. وذلك كان أساساً لوقوع الكثير من المسلمين الأبرياء إما في دائرة الإدانة والاتهام أو الحرمان.

واليوم تتعرض الكثير من المفاهيم الإيجابية مثل "التصوف، والطريقة، والجماعة، والإمام، والخدمة، والطاعة، والتسليم، والإخلاص" لخطر محدق متمثل بفقدان أهميتها بسبب الذين يستغلون المشاعر والعواطف الدينية لدى الناس. والواقع أن الذنب ليس ذنب هذه المفاهيم، وإنما الذنب ذنب الذين يلوِّثون ويشوِّهون النزاهة والطهارة التي في داخلها.

فكما أن المياه الملوثة بالأوساخ والطين لا تفقد جوهرها النقي، فكذلك لا يمكن أن تفقد الكلمات والتعابير التي صارت مثل حجارة لبنية التفكير الإسلامي أهميتها، ولا يصيبها خلل بسبب بعض ممن استخدموا روحانيتها مطيَّةً لأعمال ومصالح دنيوية.

يوجد اليوم الكثير من المفاهيم التي لفها السواد واستهجنها الناس لمجرد استخدامها من قبل شرذمة من الاستغلاليين. مع أن مجتمعنا فيه الكثير من المخلصين لمحتوى تلك الكلمات، ومن أهل الصدق والاستقامة؛ وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها.

والخلاصة أن أهل الفتن والفساد يلصقون بمفاهيمنا وتعابيرنا الإيجابية البنَّاءة بطاقاتٍ ولافتاتٍ سلبية ومستهجنة. ويحاولون وضع جميع المسلمين موضع الإدانة والشبهة بسبب بعض ممَّن يستغلون الدِّين. إنهم يلعبون لعبة خبيثة وخسيسة لإلحاق الضرر بأفكارنا ومشاعرنا.

التصوف:

على سبيل المثال؛ يحتل مفهوم التصوف مكانة رفيعة في قلوبنا، إلا أن هذا المفهوم شأنه كشأن الكثير من المفاهيم الدينية الأخرى عرضةٌ لاتهامات وافتراءات كبيرة.

هناك بصورة عامة سببان رئيسيَّان وراء الاعتراضات والاتهامات الموجهة إلى التصوف:

أما الأول: فهو البعد عن حقيقة التصوف والجهل بها.

والآخر: تقديم تطبيقات خاطئة للتصوف قام بها بعض الجاهلين أو ممن ليسوا أهلاً له، ثم إلصاقها كلها بأرباب التصوف.

مع أن **التصوف** ليس بالشكل الذي استغله بعضٌ من ذوي النوايا السيئة، أو الكيان الذي أرادوا إظهاره.

وإنما التصوف يُعد من القيم الأصيلة التي تشكل هويتنا المعنوية. فأرض الأناضول مثلاً مجبولة على التربية الصوفية منذ ألف عام. لذلك فإن التصوف موجود في عجينة وفطرة شعبنا.

إن **التصوف** الحقيقي مدرسة للتربية، هو منهج تأديبي يجنِّب العبد كلَّ ما من شأنه إبعاده عن الله تعالى، ويوصله إلى التقوى.

التصوف اسم آخر لمقام الشرب من ينبوع التسليم للحق سبحانه وتعالى، وللمقام الذي يحمل العبد إلى أفق رفيع عال مثل "الإيمان" و "الإحسان".

التصوف معركة مستمرة مع النفس لا تعرف الصلح.

التصوف تربية للنفس وتزكيتها ووضعها في خدمة الروحانيات.

التصوف توجه المؤمن الذي يسعى بقلبه إلى الكمال نحو المخلوقات بشعور الإيثار، وتحمله لمسؤولية تلبية احتياجاتها وتلافي نواقصها بمشاعر الشفقة والرحمة.

التصوف ليس إيقاع الناس في المصائد، وإنما هو جعل القلب منبع رحمة يؤمِّن الطمأنينة والسلام للبشر كلهم من أجل انتشال حتى الذين سقطوا في المصائد.

التصوف يعني التخلي عن الرغبات والشهوات الدنيوية عند الحاجة من أجل الآخرة، ولكنه لا يتضمن أبداً التخلي عن الآخرة في سبيل الدنيا مهما غلا الثمن.

التصوف سعيٌ لتربية المشاعر الداخلية لدى الإنسان، والوصول به إلى كمال الشريعة في حياة العبودية. فالعبد لا يمكنه الوصول إلى الكمال من خلال قراءة السطور فقط، وإنما يحصل الكمال بتطهير حاله وعالم قلبه من كل الشوائب والسلبيات. فالتصوف بالنسبة إليه هو تطبيق شريعة نقية صافية وبراقة.

التصوف سعيٌ لمعرفة رسول الله ﷺ عن قرب بالمحبة، والالتزام بالدين بصورة تليق بجوهره وروحه من خلال نيل نصيب من شخصية النبي العظيمة وأخلاقه الرفيعة.

فكل أمر يتناقض مع ما ذكرنا، ولا يستند إلى القرآن والسنة يُعد باطلاً مهما ادعى صاحبه التصوفَ أو نسب شيئاً إليه.

وكذلك فإن التصوف هو الشعور بالعجز وإدراك ذلك إدراكاً تاماً مهما كان المقام أو المنصب الذي يشغله الإنسان. إنه طريق لإخراج الغرور، والكبر، والعجب، والأنانية من القلب، والتحلي بمشاعر نكران الذات. إنه الابتعاد عن نسبة أي نعمة أو توفيق إلى الإنسان، وإنما إضافة ذلك كله إلى الله ﷻ.

التصوف هو العبودية للحق سبحانه وتعالى بقلب يحيط به الخوف والرجاء، أي الخوف من التعرض لغضب الله، والأمل بنيل رحمته.

التصوف ليس تفاخرٌ بالذات ورياء، وإنما عيشٌ بحال التجاء دائم إلى رحمة الله تعالى خشيةً من لحظة خروج الأنفاس الأخيرة والحياة بعدها. هو الالتزام المستمر بالتواضع ونكران الذات. إن لجوء بعض ضعاف النفوس اليوم بتجاهل تام لكل ما ذكرنا من حقائق إلى وضع التصوف وطرقه التي هي مدارس للتربية في كفة واحدة مع الفرق الضالة التي تضرب بالأوامر والنواهي الإلهية عرض الحائط في سبيل المنافع الدنيوية لهوَ دليلٌ جليٌّ وصارخ على إضمارهم نية الشر والسوء.

لقد كان المتصوفون الصادقون والحقيقيون على مر التاريخ مشاعل إرشاد تنير المجتمعات على الدوام. وقد صار عبد القادر الجيلاني، وبهاء الدين النقشبندي، ومولانا جلال الدين الرومي، ويونس أمْرَه، وعزيز محمود هُدائي وأمثالهم من أهل الحق منابع رحمة للمجتمعات التي عاشوا فيها. ولم يتساهلوا قيد أنملة مع أي عمل أو كيان من شأنه إلحاق أدنى ضرر بالدين، والوطن، والناس، والأمة، وكذلك أبدوا مقاومة وكفاحاً عظيماً في مواجهة مصادر الفساد والشر. ويُعد الإمام الرباني، وخالد البغدادي من أشهر النماذج في هذا المضمار.

> التصوف ليس بحث عن المقام والرتبة والمكانة والمنصب، وإنما هو باب الزهد ونكران الذات. إنه تكية قلبية لا يمكن الدخول إليها دون إخراج الأهواء والشهوات الدنيوية من القلب. هو خضوع العبد للحق سبحانه وتعالى مع إدراكه التام لفنائه. إنه تحويل كافة خصال المعاملة الحسنة مع عباد الله مثل العدالة، والصدق، والإخلاص، والشفقة والرحمة إلى دستور للحياة من أجل تحصيل رضا الله تعالى.

الجماعة:

إن كلمة "**الجماعة**" تعبِّر حسب ما هو مترسخ في أذهاننا وقلوبنا عن مجتمع فاضل متميز تكاتفوا فيما بينهم لأجل رضا الله تعالى. ولا يمكن أن يكون المسلم أنانياً منزوياً أبداً، فهو مضطر بواقع حاله لأن يكون منتسباً إلى الجماعة الإسلامية، ومداوماً عليها، ومتمماً لها.

وصلاة الجماعة عُدت أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين مرة. وصلاة الجمعة والعيدين لا يصح أداؤها فرادى، وإنما لا بد من أدائها في جماعة. وكذلك فإن الحج يُعد ملتقى اجتماعياً للمسلمين. وقد جاء في الحديث النبوي الشريف: "**الجماعة رحمة، والفرقة عذاب**" (أحمد، جـ٤، ص٢٧٨) فكل ما تقدم يلقِّن المسلم شعورَ الجماعة دائماً.

ومن جهة أخرى؛ نجد أن مسؤولية المسلم عن الآخرين وإنشاء المؤسسات الوقفية والخيرية انطلاقاً من هذا الإحساس بالمسؤولية يُعَدُّ انعكاساً للحس الجماعي الموجود في المجتمع. فالجماعات تُعدُّ بالنسبة للمجتمع إحدى وسائل الرحمة.

ولكن إقدام بعض الناس على تشكيل جماعة بقصد الإفساد، وإضفاء صبغة إسلامية عليها هو أمرٌ مردودٌ، وسببٌ لجلب غضب الله تعالى.

يقول الله ﷻ في كتابه العزيز:

﴿... **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ...**﴾ (المائدة: ٢)

إذاً؛ إن تشكيل جماعة للقيام بأعمال الخير، والتعاون على البر والتقوى أمر جائز ومقبول. وأما الاجتماع على العداوة والإثم والسوء والشر وإن كان على شكل منظمة أو فرقة فأمر مردود.

لذلك فإن محاولة الحط من قيمة مفهوم "**الجماعة**" الذي يحتل مكانة مهمة ومتميزة في قلوبنا، ووضع كل الجماعات في كفة واحدة لوجود بعض الاستغلاليين، يُعد جنايةً بحق حقيقته الأصلية.

لقد ظهرت عبر التاريخ الكثير من الفرق بمظهر ديني وتحركت لتحقيق مقاصد لا يقبل بها الدين. والمحاولات الجارية اليوم لإعلان كافة الجماعات والطرق على أنها منظمات مشبوهة وخطيرة بالاعتماد على مثل تلك الفرق المنحرفة لا تختلف أبداً عن وضع المتفجرات داخل الأسس المعنوية التي تحفظ تماسك الأمة ووجودها.

فينبغي عدم إتاحة الفرصة للمحاولات الخبيثة التي تتذرع ببعض الذين يستغلون العقيدة الإيمانية لدى الشعب لتستهدف هوية "أهل السنة والجماعة" التي صارت كالشريان الرئيسي لهذه الأمة منذ ألف عام. إذ ينبغي التحلي بالفراسة والبصيرة والتحرك وفقها لإفشال هذه المخططات الخطيرة التي يرسمها أعداء الإسلام.

إن الإصرار على رد كافة الجماعات والطرق جملةً وتفصيلاً بدلاً من توجيه النقد لأخطائها والعمل على إصلاحها يُعدُّ محاولةً لاقتلاع أحد شرايين هذه الأمة. فهذا العمل الذي يدل على الغفلة أو سوء النية لا يختلف أبداً عن محاولة قطع الجذع الذي تستند إليه أمتنا وحضارتنا منذ قرون طويلة. وهذا الوضع ليس من شأنه إلا إدخال السرور في قلوب أعداء هذه الأمة.

وصفوة الكلام أن ردَّ أمرٍ ما جملةً وتفصيلاً بالاستناد إلى بعض النماذج التطبيقية السيئة له – دون مراعاة جوانبه الإيجابية – ليس إلا اشتراكاً بالجرم مع الذين أساؤوا التطبيق واستغلوا الأمر لمنافعهم الخاصة. فالأمر الذي ينبغي القيام به هنا هو التمييز بين الغث والثمين وفرزهما، وعدم الخلط بين الصواب والخطأ. فمثلاً؛ لا نستطيع رفض علم الطب لأن هناك بعض الأطباء يسيئون استخدام مهنتهم، وكذلك لا يمكن التخلي عن المحاماة بحجة أن بعض المحامين يسيئون استعمال مهنتهم، ولا يمكن اتهام جيش بكامله بالإرهاب والإجرام لأن هناك بعض الإرهابيين والمجرمين قد اندسوا في صفوفه.

ويوجد في هذا الشأن مثال شهير من التاريخ الإسلامي وهو أمرُ النبي عليه الصلاة والسلام بهدم مسجد الضرار الذي أقام المنافقون أساسه على النفاق والفتنة، وبالمقابل أداؤه الصلاة في مسجد قباء الذي أُسس على الإخلاص والتقوى.

فإذا نظر الإنسان إلى هذين البناءين من الخارج يجد بأن كلاهما مسجد. ولكن إذا تم النظر إلى المسألة من الداخل فيظهر بأن الفرق بينهما كالفرق بين المشرق والمغرب، والفرق بين الجنة والنار. لأن مسجد قباء هو ذاك المسجد المبارك الذي يجمع ويوحد قلوب المؤمنين بين يدي الله تعالى، بينما يُعد مسجد ضرار حاضنةَ الشر التي أسسها المنافقون بقصد شق صفوف الأمة وإثارة الفتنة بين أفرادها.

إن وظيفة المؤمن الذي ينظر إلى الأحداث بمنظار إيماني انطلاقاً من هذا المثال الذي يلخص المشهد السائد في عصرنا هذا ليس الاعتراض على المساجد، والجماعات، والطرق، وإنما المراقبة والنظر بفراسة المؤمن لاكتشاف أوكار الفساد التي جعلت من هذه الكيانات قناعاً لها، ثم محاربتها ومكافحتها لتخليص المجتمع من شرورها. وظيفته حماية الأصلي والقضاء على المزيف، وعدم التهاون مع الذين يبطنون الشر للقيم المعنوية والروحية. وإلا – أي إذا جرت محاربة الجماعات والطرق كلها – ستحدث نتائج كارثة ومحزنة بسبب القرارات الخاطئة البعيدة عن الصواب، وذلك كمَن يحاول التخلص من البرغوث فيقرِّر حرق الفراش كله، فبدل الضرر الواحد ستحدث مئات الأضرار.

الإمام:

إن المعنى الأصلي لكلمة "الإمام" يشير إلى الذين يرشدون الناس بحالهم، ومقالهم، وسلوكهم على طريق الخير والهداية والاستقامة، وهؤلاء هم الأنبياء والرسل، ومَن سار على دربهم من بعدهم. وبناء على ذلك؛ فإن الإمام الأعظم للمؤمنين هو سيدنا رسول الله ﷺ، لأنه شخصية قدوة لا مثيل لها للبشر أجمعين. ومن الأسماء التي يسمى بها نبيُّنا الكريم: "إمام الأنبياء". وقال الله ﷻ في كتابه الكريم:

﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤)

فالله ﷻ يوجهنا في هذه الآية القرآنية إلى أن نكون من أهل التقوى من جهة، ومن جهة أخرى أن نقدم بذاتنا شخصية إسلامية تكون قدوة وإماماً في التقوى.

الجهاد:

إن "الجهاد" الذي يُعد أحد أكثر المفاهيم الإسلامية تعرضاً للتحريف والتشويه في عصرنا الحالي هو إعلاء شأن الإسلام في القلوب بإنفاق مختلف الإمكانات التي أكرم الله بها عباده في سبيله. فمثلاً تُعد خدمة التبليغ "جهاداً أكبر". يقول الله ﷻ:

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٢)

إن نزول هذا الأمر الإلهي "الجهاد الكبير" في الفترة المكية إذ لم يكن المؤمنون يمتلكون القوة والإمكانات المادية التي تؤهلهم لمحاربة ومقاومة المشركين، يقدم لنا أحد أهم معاني الجهاد.

إذاً؛ إن محاولة حصر مفهوم الجهاد بالقتال فقط إنما هو تحريف وتشويه لمعنى هذا المفهوم.

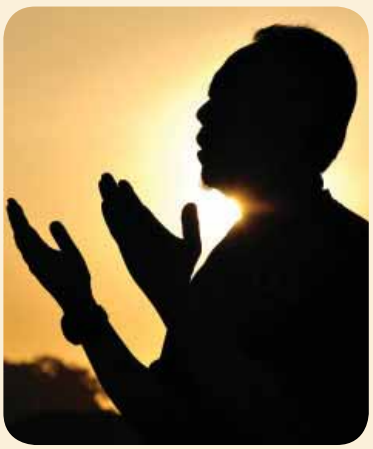

إن غاية الجهاد في الإسلام ليست إزهاق الأرواح وإراقة الدماء، وإنما الغاية هي فتح القلوب. وكذلك يُعد من الجهاد التضحيةُ بالروح عند الضرورة للدفاع عن بلاد الإسلام، وحماية الأعراض، وحفظ المقدسات من أي اعتداء. ولكن تقديم هذا النوع من الجهاد على أنه المقابل أو المقصود الوحيد "للجهاد" الذي يعني في الأساس جعل كل الإمكانات والطاقات في سبيل الله فيه تضييق لمحتوى هذا المفهوم. وهذا هو ما يريده أعداء الإسلام لإبعاد الناس عنه، وذلك بإظهار الإسلام وكأنه "دين حرب". فظاهرة (الإسلاموفوبيا) التي تعد من أعظم فتن عصرنا أثرٌ من آثار هذا التخريب والتشويه الذهني.

الخدمة:

تعبِّر كلمة "الخدمة" بمعناها الأساسي عن مختلف الأعمال والأنشطة التي يتم القيام بها لوجه الله تعالى. فالثمرة الأولى للإيمان إنما هي الرحمة، وأول مظهر للرحمة هو "خدمة" المخلوقات برأفة. وهي العمل على انتشال المحتاجين من غائلة الجوع والحرمان

بتقاسم مختلف النعم التي بين أيدينا معهم. وأما إن كانت الخدمة للنفس والشيطان والباطل، وظهرت بمظهر الإسلام، فلا تسمى ب "الخدمة" أبداً. لأنه جاء في الآية القرآنية:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف: ١٠٣- ١٠٤)

لذلك لا يطلق على الجهود المبذولة في السبل التي لا يرضى الله تعالى عنها تسمية "الخدمة". فالخدمة الحقيقة هي كل نشاط وعمل يكون في سبيل الحق ولوجه الله تعالى.

الطاعة، التسليم، الإخلاص:

علينا قبل كل شيءٍ أن نتذكر بأنه لا يجور الوصول إلى غاية مشروعة بطريقة غير مشروعة. لذلك فإن استباحة حرمات الله تعالى بذريعة خدمة غايةٍ أو غايات سامية لا تدل على التسليم والطاعة أبداً. لأن هذا ليس بطاعة، وإنما عصيان، وسببٌ لاضطراب الناس، وانزلاق المجتمع إلى الفتنة والفساد.

فقد قال النبي ﷺ:

"على المرء المسلم السمع والطاعة، فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية. فإن أُمِرَ بمعصية، فلا سمع ولا طاعة" (مسلم، الإمارة، ٣٨)

لذلك على المؤمن أن يعلم بأن مقياس الحقيقة الوحيد في كل أمر هو القرآن والسنة. وينبغي تقييم الأوامر والتعليمات والتوجيهات الصادرة ممَّن يتَّبعُهم على ضوء هذه الحقيقة. وينبغي دائماً وأبداً اتباعُ الحق واجتناب الباطل مهما كانت الظروف والأحوال. وليعلم المؤمن بأن طاعةَ الباطل عصيانٌ للحق. فطاعة أي أمر مخالف للقرآن والسنة – بغضِّ النظر عن الذي أصدره – سلوكٌ مخالف للإسلام. فالحدود الأساسية والجديرة بالاعتبار هي حدود الإسلام، وليست حدود الأشخاص.

يقول حذيفة ﷺ: دخلت على عمر ﷺ وهو قاعد على جذع في داره، وهو يحدث نفسه فدنوت منه فقلت: ما الذي أهمك يا أمير المؤمنين؟ فأشار إلى خشيته من الوقوع في الخطأ وهو أمير المؤمنين.

قلت: هذا الذي يهمك! والله لو رأينا منك أمراً ننكره لقوَّمناك. فقال: الله الذي لا إله إلا هو لو رأيتم مني أمراً تنكرونه لقوَّمتموه؟

فقلت: الله الذي لا إله إلا هو لو رأينا منك أمراً ننكره لقوَّمناك.

ففرح بذلك فرحاً شديداً، وقال: الحمد لله الذي جعل فيكم أصحابَ محمد مَن الذي إذا رأى مني أمراً ينكره قوَّمني. وكذلك قال عمر ﷺ:

"أحب الناس إلي من رفع إلي عيوبي." (السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٠٥)

إذاً لا أحد ما عدا الأنبياء والرسل معصومٌ من الخطأ والتقصير مهما كانت مكانته ومنصبه، فلا طاعة ولا تسليم لأحد في شيءٍ مخالف لأمر الله تعالى.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يدع مجالاً لمن يريد الكيد بأمة محمد ﷺ، وأن يكرمنا ويكرم أجيالنا القادمة بالبصيرة والوعي والفراسة لحفظ قيمنا المادية والمعنوية.

آمين!..

لَمَّا ولِيَ الخلافةَ سيدُنا أبو بكر الصديق ﷺ الذي هو خير الناس بعد الأنبياء والرسل، قال في خطبته: "أما بعد؛ أيها الناس: فإني قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني!.. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم...". (ابن سعد، ٣، ١٨٢- ١٨٣؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص، ٦٩، ٧١- ٧٢؛ حميد الله، نبي الإسلام، ٢، ١١٨١)

التضحية بالعباءة

اسماعيل أوزون

سنة ٦٠٥ ميلادية... كانت تجري أعمال إصلاح الكعبة التي لحقت بها أضرار جسيمة نتيجة للحرائق والسيول. كان كل واحد يقوم بما عليه من نقل الحجارة، وجلب الماء، وإعداد للطين وغير ذلك من الأعمال التي تتطلبها عملية البناء، وشيئاً فشيئاً كانت ترتفع جدران الكعبة حتى وصلت إلى المكان الذي ينبغي وضع الحجر الأسود فيه.

وجاء وقت رفع الحجر الأسود ووضعه في مكانه، فحدث خلاف بين القوم. لم تكن قبيلة من القبائل المشاركة في عملية البناء لترضى التنازل عن شرف حمل الحجر الأسود لقبيلة أخرى، فالجميع حريصٌ على نيل هذا الشرف، واشتد الخلاف بينهم حتى وصل إلى درجة أعلنوا فيها الحرب على بعضهم، وسُلَّت السيوف، وكاد أن يشتعل فتيل القتال لولا تدخل أبو أمية بن المغيرة الذي يُعد أحد وجهاء قريش، إذ نادى في القوم عارضاً عليهم الأمر الآتي:

"يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد – مشيراً إلى باب بني شيبة – يقضي بينكم فيه".

كان هذا العرض دعوةً إلى التهدئة وضبط النفس. فقبل القوم دعوته، وبهذا النداء كان أبو أمية قد وجَّهَ أنظار القوم الذين كانوا يحدقون بغضب إلى بعضهم إلى باب بني شيبة. فأخذت هذه العيون التي تتطاير منها الشرر بالنظر إلى الجهة ذاتها. وبدأ الانتظار، وبدأت الأيادي القابضة على السيوف بالتراخي رويداً رويداً.

كان أول من ظهر من ذاك الباب شاباً وسيماً مشرق الوجه حسن الهيئة قلَّ نظيره بين الناس، وله من العمر خمسة وثلاثون عاماً. فصُوِّبت الأنظار نحوه، واستبشر الجميع وقالوا:

"إنه الصادق الأمين، إنه محمد"

معبرين عن سرورهم ورضاهم. إن حمل الناس على النطق بهذه الصفة بحق نفسه أمرٌ ملفت وفريد من نوعه. فالأمانة خصلة جميلة لإحساس المجتمع بالثقة والاطمئنان.

كان يقف أمام الناس الغاضبين المتأهبين للقتال حَكَمٌ أمين، سوف يحكم بينهم ويصدر القرار الذي عليهم الامتثال له.

لقد كان أمام الأمين قضية شائكة ومستعصية، فالقرار الذي سيصدره يمكن أن يرضي بعضهم ولكن في الوقت ذاته قد يثير غضب بعضهم الآخر.

فبدأ بحل المشكلة بخلع عباءته وفرشها على الأرض، ثم وضع عليها الحجر الذي وضع الناس الموتَ نصب أعينهم من أجله.

كانت عيون جميع القوم ترقبه عن كثب، والحجر الأسود فوق عباءته المفروشة على الأرض. فحبس القوم أنفاسهم منتظرين كلمات الحَكَم التي ستخرج من بين شفتيه على أحر من الجمر. فقال:

"لتأخذ كل قبيلة بطرف من العباءة، ثم ارفعوها جميعاً إلى موضع الحجر".

كان يجب إعادة السيوف إلى أغمادها لتفرغ الأيادي وتتمكن من الإمساك بطرف العباءة. ومن الواضح أنه لو أسندت مهمة رفع الحجر إلى قبيلة من القبائل لغضبت واعترضت القبائل الأخرى.

ولما وضع الحجر في موضعه قال للقوم:

"إن شرف وضع الحجر لكم جميعاً".

وكان الأمين قد أقدم على تصرف شبيه لهذا تجاه دعوات أهل المدينة له للنزول في بيوتهم وقت الهجرة لكي لا يكسر قلوبهم برد دعوتهم، إذ قال لهم:

"دعوها (الناقة) فإنها مأمورة".

كانت اللحظة عصيبة وحرجة، وقد بلغ السيل الربى. إذ كانت السيوف قد سلت لأجل الحجر الأسود، وكانت حرب طاحنة على وشك الاندلاع بين أهل مكة في حرم الكعبة.

فحلَّ نبينا عليه الصلاة والسلام المشكلةَ ونزع فتيل الحرب كما تُنزَع الشعرة من العجين.

وهنا لا بد من التذكير بعبارات قالها جورج برنارد شو:

"لابد أن نطلق عليه لقب منقذ الإنسانية، وأعتقد أنه لو وُجِدَ رجل مثله وتولى قيادة العالم المعاصر الذي يرزح تحت وطأة مشكلات جمة، لنجح في حل جميع مشاكله بسهولة وهو يشرب فنجان قهوة، وبطريقة تجلب السعادة والسلام".

لقد فرش عباءته على الأرض من أجل حل المشكلة. لقد أوجد مخرجاً بفرش عباءته في اللحظة التي كان فيها المجتمع على حافة الهاوية.

إنه كان مستعداً عند الحاجة لفرش عباءته وللتضحية بها أو بغيرها في سبيل أن تعود السيوف إلى أغمادها ولا يُصَاب أحد من القوم ولو بخدش صغير.

فهذا كان محط اهتمامه وتفكيره، كان همه أن لا يتعرض المجتمع لأدنى قدر من الفوضى وانعدام الاستقرار وإن اتسخت عباءته أو تمزقت. فتفكيره لم يكن بعباءته، وإنما كان منصباً على كيفية حل المشكلة التي تعرض لها المجتمع.

فعندما تكون النية خالصة سليمة، فإن المشاكل تُحَلُّ حتى عن طريق عباءة؛ وعندما تطهر قلوبنا وصدورنا، فإن البركة تطرح حتى في العباءة.

ملاحظة: مجاز من كلية الإلهيات – جامعة أولوداغ – ومدرس الثقافة الدينية وعلم الأخلاق.

.

العبث بالفطرة

يُعد الكائن الذي يسمى بالإنسان لغزاً محيراً عصياً على الفهم والإحاطة به. فهو مجهَّز بالعقل بخلاف سائر المخلوقات الأخرى، إلا أنه يتصرف في كثير من الأحيان بدافع من عواطفه، ورغباته وشهواته، وليس بمقتضى أحكام عقله. ومصدر هذه الرغبات إما يكون مراكز داخلية لدى الإنسان مثل العقل، والنفس، والطبيعة البشرية؛ وإما تكون هذه الرغبات صادرة عن وساوس ومحرضات كائنات خارجة عن ذات الإنسان مثل الشياطين. وتعتبر مسألة تحديد مصدر الرغبات والأهواء والشهوات بالغة الأهمية من أجل التصرف بطريقة سليمة، لأن الرغبات التي تظهر نتيجة لوسوسات الشيطان والنفس تكون ضارة وغير ذات جدوى، وأما الرغبات التي يكون مصدرها طبيعتنا البشرية فهي في غالب الأحيان نافعة وضرورية. ويختار الناس في كثير من الأحيان الطريق الذي يسيرون عليه بشكل أعمى تحت تأثير الرغبات والأهواء النفسية والشيطانية، وليس من خلال التفكير والتأمل بالعقل لتمييز الخطأ والصواب. لهذا فإن الإمام الرباني السرهندي شأنه شأن المتصوفين الآخرين يوصي الإنسان أن يقوم قبل كل شيءٍ بحماية قلبه من المشاعر والعواطف التي لا فائدة لها ولا طائل منها، فيقول:

"ينبغي للعبد أن لا يكون له مراد ومطلوب غير مولاه عز وجل أصلاً، فلو لم يكن كذلك فهو مخرجٌ رأسه عن ربقة العبودية، وقدمه عن قيد الرقية، والعبد إذا كان في أسر مرادات نفسه، منخدعاً بهواه وهوسه فهو عبد نفسه، وفي إطاعة الشيطان اللعين. وتلك الدولة المذكورة التي يكون مراد العبد ومطلوبه مولاه عز وجل دون سواه مربوط حصولها بحصول الولاية الخاصة المربوط حصولها بالفناء الأتم والبقاء الأكمل". (الإمام الرباني، المكتوبات، ج ٣، المكتوب ٢٧)

ويشير الإمام الرباني إلى ضرورة إنهاء الإنسان لرغباته غير النافعة والقضاء عليها، وعدم الخلط بينها

د. سليمان درن

وبين الرغبات المتولدة عن طبيعته البشرية. وقد فهم كثير من المتصوفة هذه المسألة فهمًا خاطئاً، لأن الإمام الرباني يرى بأن هناك احتياجات موضوعة في فطرة الإنسان، ولا تُعَدُّ تلبيتها وإشباعها أمراً سيئاً. فسير السالك على طريق الروحانية لا يعني الانسلاخ من طبيعته البشرية والتحول إلى مَلَك، ولا القضاء تماماً على رغباته واحتياجاته المادية.

فلو أن الكمال كان بهذا الأسلوب لكان ربنا سبحانه وتعالى بلا ريب إما خلقنا مثل الملائكة، أو أمرنا أن نكون مثلهم. لذلك لا تُعد تلبية احتياجاتنا ورغباتنا المتولدة عن طبيعتنا البشرية مثل الأكل والشرب واللباس وغيرها- بصورة معقولة وبعيداً عن الإفراط- مخالفةً للروحانيات.

إذ يقول الإمام الرباني:

"تظهر المرادات والمقتضيات من بعض أولياء الله أيضاً، علماً بأن إمام الأنبياء وسلطان الأولياء عليه وعليهم أتم الصلوات وأكمل التسليمات كان يحب الماء البارد والحلوى، وحرصه على هداية الأمة مبيَّنٌ في القرآن الكريم...

إن بعض المقتضيات منشؤها الطبيعة، فما دامت نشأة الطبيعة قائمة فتلك المقتضيات باقية. فإن الطبيعة مائلة إلى البرودة وقت الحرارة من غير اختيار، وراغبة بالحرارة وقت البرودة بالاضطرار. ومثل هذا الاقتضاء لا ينافي العبودية ولا هو سبب التعلق بالهوى والهوس. فإن ضروريات الطبيعة خارجة من دائرة التكليف، وليست هي من هوى النفس الأمارة".

وبذلك فإن الإمام الرباني يبين أهم خاصية تميز التصوف الإسلامي عن الروحانية الهندية والرهبانية النصرانية التي تنكر قوانين الفطرة الإنسانية. ذلك أن السالكين في الأديان الباطلة التي أشرنا إليها ينكرون الحاجات الفطرية التي أودعها الله تعالى في الطبيعة البشرية باسم الروحانية. فهم يحرِّمون الزواج، حتى إن بعضهم يموتون من الجوع لمبالغتهم الشديدة في مسألة ما يسمونها الرياضات الروحية. وقد نهى نبينا عليه الصلاة والسلام عن مثل هذه الأعمال المضلَّة وحرَّمَها. إن الرغبات والشهوات التي يعمل الإسلام والصوفيون بفطرتهم على التخلص منها هي تلك السفلية وغير النافعة:

"لأن ميل النفس يكون إما إلى فضول مباح، أو إلى المشتبه والمحرم، وما هو ضروري لا مدخل فيه للنفس. فظهر أن منشأ التعلق والتعوق هو الاشتغال بفضوليات الأفعال وإن كانت من قسم المباح. فإن لمفضول المباح نسبة قرب الجوار بالمحرم. فلو رفع الإنسان قدمه منه بإغواء العدو اللعين ليَضع في المحرم بلا اختيار. لذا كان الاقتصار على المباح ضرورياً، لأنه لو رفع السالك القدم منه يُوضع في فضول المباح".

لذلك ينبغي للسالك عدم الانجرار خلف كل رغبة تخطر في عقله، وعليه قبل التحرك البحث والتحري والتدقيق في المصدر الذي تنبعث منه هذه الرغبة. ويرى الإمام الرباني أن هذه الرغبات تنبع من مصدرين، فأما المصدر الأول فهو إلهام الملائكة، وأما الآخر فهو وسوسة الشيطان:

"وظهور المرادات ربما يكون بسبب من الخارج مع خلوص الشخص في نفسه عن المرادات. وهذا السبب الخارج إما واعظ الرحمن فيلقي الخيرات، فإن لله سبحانه واعظاً في قلب كل مؤمن.

وإما يكون هذا السبب الخارج الشيطانُ فيلقي الشرور والعداوة ﴿**يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا**﴾ (النساء: ١٢٠) "

فيرى الإمام الرباني أن التغلب على هذه الأمنيات والرغبات الشيطانية يسيرٌ نسبياً، لأن الشيطان يلقي بوساوسه في قلوبنا من الخارج. لكن من الصعب التغلب على الرغبات النابعة من النفس، لأنها داخلية، ومتخفية في جوهرنا:

"والخلاصة؛ إن كل فساد منشأه النفس الأمارة فهو مرض ذاتي وسم قاتل ومناف لمقام العبودية. وكل فساد حصل من خارج ولو كان بإلقاء الشيطان فهو من الأمراض العارضة الزائلة بأدنى علاج، قال الله تبارك وتعالى:

﴿**إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾ (النساء: ٧٦) .

بلاؤنا إنما هو أنفسنا، وعدو أرواحنا مصاحبنا وهو النفس... والعدو الخارجي الذي هو الشيطان يستولي علينا بمدد أنفسنا، ويزيلنا عن منزلتنا ويتغلب علينا بإعانة منها".

ومن أحد مصاعب الاشتغال بالنفس كونها عدوة ذاتها. فليس من السهولة تربية كائن يريد السوء لذاته، فهذه التربية لا تتم إلا بمساعدة المرشد الكامل:

"أشد الأشياء جهالة في الدنيا هو النفس الأمارة، فإنها عدوة نفسها، ومريدة للسوء بها، وهمتها إهلاك نفسها...

ومتمناها معصية ربها الذي هو مولاها وولي نعمها، وإطاعة الشيطان الذي هو عدوها".

وصفوة الكلام أن إنكار بعض المتصوفة للاحتياجات والرغبات النابعة من الطبيعة والفطرة البشرية بحجة تربية النفس ليس بالأمر الصائب.

فتلبية الاحتياجات الفطرية التي تقتضيها طبيعتنا البشرية ليست بعائق أمام الروحانيات أبداً. والأمر المهم في هذا الشأن عند تلبية هذه الرغبات هو تجنب الوقوع في الإفراط أو التفريط.

إذ إن تكلف السالك بمشقات لا لزوم لها في هذا الشأن والتي تتولد عن الإفراط والتفريط سيكون لها تأثير عكسي تماماً،

فالنفس عندما لايتم تلبية الرغبات الحلال والمعقولة التي تتطلبها الطبيعة البشرية بتوازن دون إسراف تسهِّلُ الطريقَ أمام صاحبها بعد فترة من الاعتياد لارتكاب المحرمات.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون لنا عوناً في هذا الجهاد والامتحان الشاق. آمين.

القدرة على العفو

جلال الدين أوزبك

العفو هو تلقي الأخطاء والإساءات بصبر وتأنٍ، وإعطاء الذين ارتكبوا هذه الأخطاء حتى ولو بقصد فرصة لإدراكها والوقوف عليها...فالردُّ على الأخطاء بأخطاء والإساءات بإساءات مثلها قد يجعل المسيء يُصرُّ على إساءته.

مع أنه عند ارتكاب الأخطاء بحقنا يُنتَظَر منا رد فعل عقابي تجاهها، إلا أننا نستطيع أن نجعل رد الفعل هذا وسيلةً لإدراك المخطئ أخطاءه، ثم التراجع عنها وتصحيحها والندم عليها، وليس وسيلةً للعقاب والانتقام، وذلك من خلال التأني والتمهل.

حتى إن تعاملنا مع الإساءة المرتكبة بحقنا بتجاهل وصدر رحب كأنها لم تقع، وإظهار صدقنا وإخلاصنا للمسيء بصورة جميلة يكون سبباً في ندمه على تلك الإساءة. ينبغي أن نتَّهم أنفسنا أولاً عند حدوث الإساءة بوضع احتمال أننا كنا السبب في صدور هذه الإساءة من المسيء كي نستطيع الحفاظ على إخلاصنا. فلربما من غير أن نستوعب أفكاره ومشاعره صدرَ منا قولٌ أو فعلٌ بطريقة أثارت غضبه ودفعته إلى الإساءة، إذ لا أحد يريد الإساءة لغيره عبثاً. ومع ذلك كله، ينبغي أن نحزن ونأسف لحاله بسبب الخطأ أو الذنب الذي ارتكبه، ونطلب له العفو من الله تعالى، لا أن نغضب عليه.

إن الذي يعفو، يُعفى عنه. فالذي يعفو عنا لا يمكن أن يكون عدوَّنا بحال من الأحوال. وبالعفو نتخلص من احتمال اكتساب عدو، ذلك أننا إما أن نكسب صديقاً جديداً، أو نحافظ على صداقة قديمة. وإن كسب صديق بدلاً من عدو، والحفاظ على صداقة قائمة يُعَدُّ ربحاً مضاعفاً.

إن العفو خصلة حميدة. وكل خصلة حميدة تحقق توازناً مع خصلة سيئة وتمنع من تحولها إلى مضرة. وتنمية خصلة حميدة تزيد من إمكانية تنمية الخصال الحميدة الأخرى لدينا.

ينبغي أن نمتلك نفساً قادرة على العفو، لذلك ينبغي أن ننمي أنفسنا بالتربية. وإن كانت خصلة العفو لدى كل إنسان على قدر طاقته، إلا أنها لا تظهر من تلقاء ذاتها، إذ إن هناك سبلاً لإظهارها وتنميتها وتطويرها.

فقبل كل شيءٍ علينا التخلي عن معاملاتنا الخاطئة كي لا نضطر إلى طلب العفو من الآخرين. ولتحقيق ذلك ينبغي

لنا تجنب الأفعال العشوائية والخارجة عن السيطرة والتحكم. ينبغي الامتناع عن الإتيان بأي حركة قبل معرفة النتائج المحتملة للمعاملات والأعمال التي سوف نُقدِم عليها. وإذا ما صدرت منا سلوك خاطئ بقصد أو بغير قصد، فينبغي أن نعلم أنه لا بد من الاعتذار إلى الذين أسأنا إليهم. وإذا كان قد ترتبت لهم حقوق في ذمتنا فعلينا إعادتها إليهم، فإن لم تكن لدينا القدرة على إعادتها أو كانت الإعادة محالة، فينبغي أن نطلب منهم مسامحتنا عنها. وعلينا تقديم الشكر لمن سامحنا، وطلب مهلة ممن امتنعوا عن مسامحتنا حتى نستطيع أن نعيد حقوقهم إليهم. ونحاول جاهدين إعادة حقوقهم بأقرب فرصة ممكنة، وكسب ودهم. وينبغي لنا البحث عمن أصبنا شيئاً من حقوقهم لإعادتها إليهم، فإذا لم نجدهم، وفقدنا الأمل من العثور عليهم مع جدية البحث والتفتيش، فعلينا حينها التصدق باسمهم.

كما أن المذنب أو المخطئ يطلب العفو باللسان، فعليه البحث عن أسباب العفو عنه بالفعل أيضاً، كأن "يُقرِض الله قرضاً حسناً"، أي أن يلبي احتياجات الناس ويفرِّج كرباتهم لنيل رضا الله ﷻ.

وكما أن الإنسان يستطيع طلب المغفرة لنفسه، فإن له طلبها أيضاً لوالديه، ولعامة المؤمنين. وكما أن طلب المغفرة يمكن أن يكون فردياً، فإنه يمكن أن يكون جماعياً أيضاً.

من الأفضل لتنمية شعور العفو لدينا النظر إلى الإنسان بإيجابية من خلال التفكير بالمراتب التي على الإنسان تحصيلها للوصول إلى مرضاة الله تعالى، وإدراك احتمال أن يحيد عن جادة الصواب أو أن يرتكب الأخطاء، أو أن يفقد أحياناً لصفات الكمال التي يتمتع بها، وذلك بدلاً من النظر إليه بوصفه مجرماً ومذنباً دائم العصيان.

ولكي نطلب العفو لا بد أولاً من الاعتراف بالذنب والإقرار بالخطأ، ثم الإحساس بالندم عليه، والعزم على عدم العودة إليه مرة أخرى، فإذا فعلنا ذلك نكون

قد استغفرنا عن ذنبنا. وإن أفضل سبيل لتأكيد العزم على عدم تكرار الخطأ هو القيام بأعمال معاكسة للخطأ المقترف، واتخاذ تلك الأعمال عادةً لدينا. وعلينا أيضاً التوجه إلى الحق ﷻ لتجنب اقتراف أخطاء وذنوب أخرى.

إن غاية الحياة ومقصدها الالتزامُ بالحق وعدم التزحزح عنه، فينبغي أن يصبح هذا الأمر مبدأً عاماً لنا لا يمكن التخلي عنه أبداً. وعندما نحقق هذه الحال، نكون قد حققنا التوبة.

يمكن للإنسان أن يعفو عن كل شخص، وعن كل إساءة تصدر بحقه، حتى إنه ينبغي له فعل ذلك. ولكن لا ينبغي له أبداً العفو عن أخطائه، واتباعه أهواء نفسه. وعليه من أجل ذلك الإكثار من محاسبة نفسه، عليه أن يراقب نفسه باستمرار، ويتفحص أحاسيسه وأفكاره فيما إذا كانت قد حادت عن صراط الله تعالى أم لا.

إن العفو له أدب، وعلينا التحلي به. ذلك أنه حتى المفسدون يستطيعون أن يعفو عن الآخرين، ولكن لا رحمة في عفوهم. إذ يسحقون الذين عفوا عنهم تحت وطأة العفو ويؤذونهم بالامتنان عليهم. فالمذنب قد يتخلص من آثار عقاب الذنب الذي اقترفه، إلا أنه هذه المرة يواجه ثقل الامتنان بالعفو.

أما الإنسان الصالح فلا يؤذي الذين عفا عنهم ولا يمنُّ عليهم، فهو حتى لا يقول للمذنب عفوت عنك، بل يعامله وكأنه لم يفعل شيئاً، وبذلك يستر على أخطائه وإساءاته بشكل جميل.

إن المؤمنين يتجنبون اقتراف الذنوب في كل الأحوال ما أمكنهم، لا سيما الجهري منه، لكي ينالوا مكرمة العفو من الله الغفور. ذلك أنه يُعفى عن كل الأمة ما عدا المجاهرين بالذنوب والمعاصي. فإذا لم يعلم أحد غيرنا بالذنب الذي اقترفناه، فإن آثاره ونتائجه الضارة تبقى مقتصرة على أنفسنا. ولكن عندما يشاهد الآخرون أيضاً معاصينا، فإنهم يتأذون من آثارها. والمجاهرة بالمعصية تجعل الآخرين يعتادون عليها. وهذا الأمر يؤدي إلى إضعاف فرص مواجهة اقتراف تلك المعصية، ويزيد من احتمالات ارتكاب الآخرين لها أيضاً. فيكون المجاهر منا هو السبب بكل ذلك.

ولا بد للإنسان الذي تاب وعُفِيَ عنه من ترك مرافقة أصحاب السوء لكي يتمكن من الحفاظ على توبته، وتجنب العودة إلى المعصية مرة أخرى. ذلك أن الذين يُبعِدون الإنسان عن هذا المقصد، أي التوبة والحفاظ عليها، ويثيرون الشبهات حوله، ويدخلون التردد في قلبه بشأن سلامة القرار الذي اتخذه إنما هم الأصحاب والأصدقاء.

إننا من خلال جعل العفو خصلةً متأصلةً فينا نصبح متصفين بصفة "الغفور" التي هي من صفات الله تعالى. وبذلك فإن القدرة الكامنة في داخلنا تتخلق بصفة الغفور، ونكون بالتالي أضفناها إلى مجرى حياتنا. وبما أن هذه الصفة هي من صفات الله، فإننا نكون بذلك قد اتصفنا بصفات الله تعالى.

إن الله تعالى من خلال صفته (الغفور) يغفر معاصينا وذنوبنا مراراً وتكراراً، إذ لا حدود لغفرانه. لذلك ينبغي ألا نيأس من عفوه بشكل من الأشكال. فالرجاء من الله لا ينقطع أبداً، ولا ييأس من الله إلا الضالون عن جادة الحق والصواب. إضافة إلى ذلك، لا ينبغي أن يقودنا الرجاء المفرط إلى الإهمال واستسهال الأمور، إذ لا بد أن يكون الإنسان بين الخوف والرجاء. والخوف يجب أن يكون على شكل الخشية، إذ إن الخشية اختلاج وارتجاف داخلي يشعر به الإنسان بسبب إدراكه عظمة الخالق وعلو شأنه. والخشية في الأصل هي حال التيقظ خوفاً من فقدان محبة الله تعالى. ومصدر الخشية هو العلم، لذلك فإن أكثر من يخشون الله ﷻ هم العلماء.

إن الله الغفور لا يعفو إلا عن أهل الإيمان، ولا يعفو عن الكافرين أبداً ما داموا على كفرهم وغيِّهم. وهناك احتمال بأن يتراجع أهل الشرك عن شركهم في أي لحظة من لحظات حياتهم قبل الموت، لذلك هناك احتمال للعفو عنهم. ولكن لا احتمال للعفو عمَّن مات على شركه أبداً. كلما ازداد الإنسان علماً، ازداد معه احتمال تخلصه من الشرك، وعدم الوقوع فيه مرة أخرى. لهذا ينبغي للإنسان محاولة الاستزادة من العلم دائماً، وعليه أن ينظِّم حياته على ضوء العلم، ويزيد من الأعمال الصالحة ليحافظ على إيمانه ويقويه. وتقل أخطاؤنا وتتضاءل طالما سرنا على هذا النهج، وإن زلَّت بنا القدم وأخطأنا يوماً فإننا نعلم طريق التوبة وكيفية السير إليها، فبالتوبة والاستغفار نتحلى بالخصال والصفات الحسنة. ومع ذلك كله فإن المغفرة الأساسية لا تتحقق بتوبة العبد وطاعته، وإنما باللطف والإحسان الإلهي.

يمكن للإنسان أن يعفو عن كل شخص، وعن كل إساءة تصدر بحقه، بل ينبغي عليه فعل ذلك. ولكن ما ينبغي له أبداً العفو عن أخطائه، واتباعه أهواء نفسه. وعليه من أجل ذلك الإكثار من محاسبة نفسه، عليه أن يراقب نفسه باستمرار، ويتفحص أحاسيسه، وأفكاره فيما إذا كانت قد تنكبت عن صراط الله، أم لا.

ولا بد أن يتوجه العبد ويتضرع إلى الله الغفور بالدعاء كي ينال اللطف الإلهي.

اللهم إني ظلمت نفسي، فأعوذ بك من شر ما صنعت، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، وارحمني، واعفُ عني، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت يا غفور يا رحيم. آمين..

للمرارة

أليف غريب

نحب المذاق الحلو والمر أيضاً، ونحب الحامض وكذلك المالح. فلكل منها طعمٌ ومذاقٌ مختلفٌ، ولا يمكن أن نجعل أحدها مكان الآخر بشكل من الأشكال. فالخالق قد طبع كل واحد منها بطابع خاص ومميز، ولكن لا يمكن أن يشعر بمذاقها وطعمها إلا المحافظون على حاسة الذوق، أي الذين لم يفقدوها بعد! إن الماء الذي يسقي الأرض هو الماء ذاته، والتراب المنتشر فيها التراب ذاته، والشمس هي الشمس ذاتها... وأما المذاق فمتعدد ومختلف.

وهذا الأمر من أكبر الأدلة على عظمة الخالق. فهو ليس بالأمر العادي والبسيط، إنه سر من أسرار عظمة ربنا سبحانه وتعالى ذو الإكرام والإحسان، ولا يدرك ذلك إلا المتأمل فيه بعين الحكمة! فهل هذه اللذة مقتصرة على الأطعمة فقط؟.

إن الابتلاءات الآتية من الله تعالى أيضاً لها نصيب من هذه اللذة. فكما أن الله تعالى أودع في كل طعام مذاقاً مختلفاً، فإنه قد أعطى هذا المذاق لكل امتحان وابتلاء أيضاً.

ولكن لا يمكن أن يحسَّ به إلا مَن لم يفقد حاسة الذوق! فإذا ما تأملنا في حياة الأنبياء وأهل الله ونظرنا إليها بعين القلب فسوف نشاهد كيف أنهم تلذذوا بكل الابتلاءات حلوها ومرها. إن التلذذ بالابتلاء يعرفه المحبون للمرارة؛ إذ إن لها طعماً خاصاً بها لا يمكن التخلي والابتعاد عنه أبداً. فحتى لو دمعت العين، واحمرت الأذنان من حدتها فإنك ستستمر في تناولها، وتتلذذ بالمذاق العجيب الذي تشعر به. وإنك ستشكر الذي أنعم عليك بهذه النعمة وجعلك تحس بطعمها...

كيف تكون حلاوة هذه المرارة؟

وهل هي حلوة بالفعل؟

إذاً؛ فلم اسمها مر؟

إن المرارة حلوة لأنها تمتلك طعماً ومذاقاً خاصاً بها. إنها ضرورية بقدر الحلو. فبالمرارة ندرك حلاوة الحلو، تماماً كما ندرك قيمة الصحة ومعناها عند المرض... هل يمكن أن يمتنع الإنسان المريض عن تناول الدواء بدعوى أنه مر؟! ينبغي للعبد التركيز على النتائج أكثر من الحوادث.

أليس ينال المرء الجنة الوارفة الظلال والمحاطة بالأمن والسلامة بالتعقل وبالصبر على المصائب والابتلاءات حتى ولو كانت من نوع الكوارث المدمرة؟

المرض مر، والفراق مر، ووخز الشوك أيضاً مر.

الحياة تحتوي على المرارة بقدر احتوائها على الحلاوة والطيب، وطالما أن الله جل جلاله هو مَن أودعها في الحياة فإنها منطقية وفي محلها. فينبغي لنا قبل الانزلاق إلى حفرة التأفف، والتأوه، والتململ

لذة أيضاً

الإسراعُ إلى سلم الحمد والشكر، والبدء بالصعود إلى مقام النفس الراضية خطوة خطوة. إن السبيل الوحيد للنجاة هو العمل على قول: "إن مرادك هو مرادي!". ذلك أن نهاية المُصِرِّين على مرادهم تكون بتحول هذا المراد إلى بلاء ومصيبة...

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (الإسراء: ١١)

ينبغي النزول عن مركب الشكوى والاعتراض والتذمر، والصعود إلى مركب الصبر. ينبغي عند إحساس القلب بالمرارة الإمساكُ بزمام السعي والمجاهدة والسير قدماً. فعندما يصبر المرء ويزداد صبراً يفرُّ إلى الله القائل:

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ (الذاريات: ٥٠)

فالأمر اللذيذ هو هذا الفرار إلى الله. إنه الطمأنينة والسكينة المتولِّدة في القلب بعد الاستجابة لدعوة ربنا عز وجل... فهذا هو الشيء الحلو والطيب، والشيء المر هو بقاؤك حائراً غافلاً في غمرة المسرَّات المؤقتة والمزيفة. إن مواساتنا، وسِرَّ سعادتنا، ووصفة صبرنا تكمن في جواب النبي عليه الصلاة والسلام لعمر رضي الله عنه الذي عرض عليه التوسيع على نفسه في أمور الحياة الدنيا، إذ قال له:

" أما ترضى يا عمر أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟!".

عندما تكون المرارة في سبيل الله تعالى فإنها حتماً تتحول إلى حلاوة؛ ينبغي أن نسأل عن هذا الأمر حبيبَ الله الذي رُجِمَ بالحجارة من صبيان الطائف وسفهائها، والذي استُهزِئَ به برمي أحشاء البعير على رأسه وهو ساجد.

ينبغي أن نسأل خليلَ الله الذي أُلقيَ به في النار ولم يأبه بذلك، حتى لم تتغير ملامح وجهه. أو نسأل سحرةَ فرعون الذين قُطِّعَت أيديهم وأرجلهم من خلاف لأنهم آمنوا بالله تعالى.

أجل للمرارة مذاق ولذة أيضاً... فسلام على من يتذوقونها ويتلذذون بها!

وأنت أتِحْ فرصةً للمرارة كي تتمكن من الوصول إلى هذه اللذة. اطلب العون من الذي وسعت قدرته كل شيءٍ وتمسك بحبل الصبر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣)

إن ما يحوِّل المرارة إلى لذة هو الصبر والسجود؛ السجود الذي يبعد المرءَ عن المر ويقربه إلى الحلاوة.

نحن أمة محمد ﷺ، ندعو كما علَّمنا سيدنا وحبيبنا عليه الصلاة والسلام. ونطلب من الله تعالى في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وإذا ما ابتلانا بمصيبة فإننا نصبر ونطلب العون منه وحده.

آدم سراج

ما مدى استعدادنا!

أشرقت شمس الإسلام وأرسلت بموجات أشعتها لتنفذ من قلب إلى قلب، فكانت تنير بضوئها الساطع تلك الديار الغارقة في الظلام الدامس...

وكان أولئك الناس الذين نالوا نصيب التوجه نحو مصدر ذلك الضياء الوهاج يقتبس كل واحد منهم نوراً كصحابي من الصحابة، ويصبح بذاته سراجاً وقنديلاً ينشر النور من حوله. فكل من وصل إلى الرسالة كان يتفاعل معها ويبذل جهده لإيصالها إلى غيره. ولأجل ذلك فإنهم كانوا يتحركون ويجرون ليل نهار أملاً بأن يكونوا وسيلة لإنارة كل ما حولهم ابتداءاً من أفراد العائلة، والمحيطين بهم من الجوار وانتهاءاً بجميع الناس.

لقد كانت الإنسانية قد دخلت من خلال هذه القناديل المنيرة التي بايعت في العقبة الأولى والثانية، واستشرى في قلوبها عشق رسول الله ﷺ، دخلت إلى عملية إعادة بناء والتي سوف يغير مسار تاريخها. ولنبدأ بالوعد والعهد الذي قُطع لرسول الله ﷺ في العقبة:

"نبايع رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم!"

لم يكن هذا مجرد كلام، وإنما كان هذا العهد بمثابة نمط حياة انعكس على سائر مراحل وتقلبات حياتهم..

لقد كانوا يعلمون ضرورة ووجوب حب رسول الله ﷺ أكثر من أي شيءٍ في الدنيا. فكان الصحابي الجليل مصعب ﷺ قد يبين هذا الأمر ويعلمه بشكل في غاية الروعة. ولكن الآن فإنهم يحبونه أكثر من أي شيءٍ آخر. وقد ارتقوا من التعلم إلى التطبيق، ومن القول إلى العمل.

وفي العقبة رأوا رسول الله ﷺ فبايعوه وصاروا من الصحابة. وهكذا فإن كل واحد منهم قد أصبح من كبار شخصيات الدعوة العظيمة.

وبعد أن بايعوا النبي ﷺ وجهوا إليه وإلى أحبائه من الصحابة الدعوة للحضور إلى المدينة المنورة.

لقد توجه هذا المجتمع الفاضل المختار الذي وصل إلى أعلى درجات العزة والشرف بالتقائه مع سلطان الأنبياء، توجهوا إليه بكل ما يملكون، وتجاوزوا مسألة العودة إلى الخلف نهائياً. وقد تعلقوا به لدرجة لم يعد يبرح خيالهم

وقلوبهم، فكانوا يفكرون به طيلة مسيرتهم على طريق العودة إلى المدينة، حتى وكأنه كان يسير معهم على ذاك الطريق..

وما كاد يصل خبر عودة هؤلاء الذين ذهبوا إلى مكة وتشرفوا بمقابلة النبي ﷺ إلى المدينة حتى امتلأت بيوتهم بوفود من أهل المدينة، وما إن وصلوا إلى منازلهم حتى أمطرهم هؤلاء الذين ينتظرونهم على أحر من الجمر بسيل من الأسئلة. فسردوا عليهم كل الأحداث التي جرت معهم في هذه الزيارة وفي العقبة ابتداءاً من لقائهم الأول بالنبي ﷺ، ثم قالوا جملة حركت المشاعر والقلوب...لقد دعونا رسول الله ﷺ إلى المدينة. وإنه سوف يرسل أصحابه أولاً، ثم بعد ذلك يشرفنا بمجيئه! أي أن النبي ﷺ سوف يأتي إلى المدينة!

لقد ملأ هؤلاء المسلمون الأفاضل الذين تشرفوا بنعمة الإسلام سائر أوقاتهم بأعمال الخير.

لقد كانوا يعيشون حالة العشق، والهيام، والمحبة لهذا الجمال الذي تجملوا به ولتبليغه للناس بالعمل لا بالقول فقط. ولا شك أن التبليغ والتبيين للناس كان أسهل وأكثر تأثيراً عندما نفذوا ما بلغوه بأفعالهم. وكانوا يلتقون بأصحابهم وجيرانهم ويقومون قبل كل شيءٍ بتعليمهم القرآن الكريم، ولأن رأس كل شيءٍ هو القرآن الكريم.

لقد كانوا يسألون عن المسائل التي تستعصي أو تستشكل عليهم وعلى رأسها العبادات، يسألون مصعب بن عمير ﷺ ويتعلمون منه. إذ كان مصعب ﷺ مندوباً لرسول الله ﷺ، فكان يقوم بتمثيله، ويتصرف باسمه.

استضافة النبي عليه الصلاة والسلام في بيوتهم!

فالتحضيرات كانت تجري من أجل هذه الغاية. حيث كانوا يجهزون أفضل حجرات بيوتهم لاستضافة رسول الله ﷺ فيها.

لم يكن صدى كلمة "ليت" تفارق قلوبهم خلال القيام بالتجهيزات. فكل واحد يردد في قلبه بعشق: "ليت رسول الله ﷺ ينزل ضيفاً في داري" ... ولم يبق أمام المسلمين في يثرب سوى انتظار قدومه ﷺ... ولم يطل انتظارهم كثيراً...

وبدأ الصحابة الكرام بناء على تعليمات النبي ﷺ بالخروج في طريق الهجرة إلى يثرب إما فرادىً، أو على شكل مجموعات صغيرة وذلك حسب الأحوال والظروف.

لقد كانت محاولات أهل يثرب رؤية رسول الله ﷺ في وجوه إخوانهم المهاجرين، وفي عيونهم، وفي قلوبهم، وفي كل أحوالهم وحركاتهم أمراً جلياً لا يمكن إخفاؤه...

وفي نهاية المطاف خرج المهاجر العزيز الذي طالما انتظروه بشوق في طريقه إليهم. فها قد ألهب هذا الخبر من جديد القلوب المليئة بالمحبة. النبي ﷺ قادم! سوف تُضاء الظلمات، ويحل النور مكان الظلام! إذ أن القادم هو شمس العالمين.

ولما تراءى الرسول ﷺ في الأفق بدت المدينة وكأنها تقفز من مكانها... ها هو قادم! رسول الله ﷺ قادم! سلطان الأنبياء قادم! أجل؛ إنه قادم...

كانت المدينة في سباق المحبة بكل شيء. لقد كان كل واحد يجري بكل حماس إلى وسيلة المحبة، يجري بمحبة... كان كل واحد ينطق المحبة ذاتها بعبارة مختلفة. وأُفرغت هذه المحبة في أنشودة مشهورة بلغت أصداؤها أرجاء الأرض قاطبة، أنشودة : "طلع البدر علينا ..."

لقد أصبح الذين خرجوا لاستقبال النبي ﷺ في حالة من الفرحة العارمة إلى درجة أنهم احتاروا معها ماذا يفعلون.

– إننا مستعدون لكل شيءٍ وبكل ما نملك يا رسول الله!

كان كلامهم صادقاً، وكانوا متجهزين ومستعدين. كانت تحضيرات الاستعداد بادية للعيان وموضوعة في الميدان. إذاً فما مدى استعدادنا نحن؟ ولو أننا كنا هناك في تلك الأيام، نشعر بأننا كنا سوف نقول أيضاً بكل حماس واندفاع "تفضل" إلى داري. ولحسن الحظ بأن الأمانات التي تركها هي بين أيدينا، فيا ترى هل يمكننا أن نتبنى تلك الأمانة ونؤديها حقها كما طلبه منا وأوصانا به؟ ثم إن مسلمي المدينة تجهزوا واستعدوا لأجل رسول الله ﷺ. إذاً فاستعدادنا لأجل ماذا، وما مدى هذا الاستعداد؟

الثبات على الحق

إبراهيم منصور الحسين

الحقُّ هو القانونُ الثابتُ ثبوتَ الأرضِ والجبالِ، والشموسِ والأقمارِ، ﴿لا يأتيه الباطلُ من بين يديهِ ولا من خلفهِ﴾ ، والحقُّ واحدٌ لا يتبدلُ ولا يتشعبُ، ولا يزولُ ولا يتبددُ، وله وجهٌ واحدٌ، ونهجٌ واضحٌ، وطريقٌ قويمٌ.

والحقُّ أرسى أسُسَه الحقُّ ﷻ، وأضفى عليه ثوباً من اسمِه.

وأما الباطلُ فلا ثباتَ له ولا قرارَ، ولا دوامَ له ولا استمرارَ، وهو عرضةٌ للتلونِ والزوالِ، فلا يقفُ أمامَ جبروتِ الحقِّ وقوتِه، بل ينماثُ كما ينماثُ الملحُ في الماءِ، وكما يذوبُ الجليدُ تحتَ سطوةِ الشمسِ الملتهبةِ، وهل الباطلُ إلا ظلٌّ لسقيمِ الأفهامِ؟ وسرابٌ في بيداءِ الأوهامِ؟

وقدْ خلَعَ الحقُّ على ذويه لبوساً سابغاً، ونوراً وهّاجاً، وجديرٌ بمنِ اختارَ الحقَّ صاحباً وخليلاً، ونهجاً وطريقاً، جديرٌ به أن يكونَ ثابتاً في مواقفِه، صادقاً في نهجِه وسلوكِه، لا تلينُ عزيمتُه أمامَ صعابِ الدنيا وجحيمها، ولذاتها ونعيمها، فهذا رسولُ اللهِ ﷺ وهو أسوة السالكين، وقدوة المتقين، يعترضُ طريقَه الغنى والمالُ، والعزُّ والسلطانُ، على حينِ فاقةٍ وحاجةٍ، فيعرضُ عنها، ويوليها ظهرَه، ثم يهددُه قومُه بالعذابِ والنكالِ، فلا تَلينُ قناتُه، ولا تضعفُ عزيمتُه.

لقد أرسلتْ قريش يوماً عتبةَ بنَ ربيعةَ ـ وكان من ساداتِ العربِ ـ إلى رسول الله ﷺ فقال له:

«يا ابن أخي، إنَّك منَّا حيثُ قد علمتَ من المكانِ في النسبِ، وقد أتيتَ قومَكَ بأمرٍ عظيم فرّقْتَ به جماعتَهم، فاسمعْ مني أعرضْ عليك أموراً لعلَّك تقبل بعضها. إن كنتَ إنما تريدُ بهذا الأمرِ مالاً جمعْنا لكَ من أموالنا حتى تكونَ أكثرَنا مالاً. وإنْ كنتَ تريدُ شرفاً سوّدناك علينا، فلا نقطعُ أمراً دونك. وإنْ كنتَ تريدُ ملكاً ملّكناك علينا، وإنْ كانَ هذا الذي يأتيك رئيًّا تراه لا تستطيعُ ردّه عن نفسك طلبْنا لك الطبّ وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ».

فلم تطرفْ هذه المغرياتُ عينَ النبيِّ ﷺ ولم تأخذ من قلبه الشريقِ قيدَ أنملةٍ، بلْ قالَ له اجلسْ فاسمعْ، وطفق يتلو عليه آياتٍ من الذكر الحكيم، فبلغتْ من قلبه كلَّ مبلغ، وخشعَ لها سمعُه وبصرُه، فما لبثَ أن كرَّ راجعاً، ليقولَ لمن حوله: إنَّ هذا الكلامَ له حلاوةٌ، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنَّ أعلاه لمثمرٌ وإنَّ أسفلَه لمغدقٌ، وإنَّه يعلو ولا يُعلى عليه.

وهذه قريش تلجأُ مرةً أخرَ إلى الرهبةِ بعد الرغبةِ، فأرسلوا وفداً إلى أبي طالبٍ، فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد اشتهيناك مِن ابن أخيك فلم تنهه عنّا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيْبِ آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله

وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ل، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خِذلانه.

فبعث إلى رسول الله ﷺ ، فقال له: يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، للذي كانوا قالوا له ، فأبق علي وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق ؛ قال : فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه . قال : فقال رسول الله ﷺ : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته.

لقد كانَ نبيُّنا ﷺ رابطَ الجأشِ، ماضي العزيمةِ، حتى ظهرَ الحقَّ، وانتشرَ هذا الدين. وتلقى عنه أصحابُه الكرامُ ـ رضي الله عنهم ـ هذه الشمائلَ المباركةَ، والخِلالَ الحميدةَ، فانظر إلى هذا الرجلِ الذي لا نَعرفُ عنه إلا القليلَ، وليس هو من الصحابةِ المشهورين، وكمْ من خاملِ الصيتِ، قد مُلِئَ إهابُه بالفضائلِ، وكمْ منْ رجلٍ لا يعرفُه الناسُ، ـ ولا يضيرُه ذلك شيئًا وهو عند الله غالٍ، ألا يكفيه علمُ الذي لا تخفى عليه خافيةٌ في الأرضِ ولا في السماءِ؟ إنَّ هذا الرجلَ يُدعى عبدَ الله بنَ حذافةَ السهميَّ ﷺ كان يرابطُ في ثغورِ الروم، فحاصره الرومُ وهو في قطعة صغيرة من جيش المسلمين، فأخذوه أسيراً هو وأصحابَه، وسُرَّ هرقلُ لما بلغَه هذا الخبرُ، لقد سمعَ الكثيرَ عن الصحابةِ الكرامِ، فكان يتمنى أن يرى واحداً منهم، فيبصرَ إيمانهم ويقينهم وثقتهم بالله، وثباتهم على دينهم، فأرسل إليه، وجعلَ يساومه على دينه بالترغيب مرةً، وبالترهيب أخرى، فخابت مساعيه، وطاشت سهامه، لقد عرض عليه جميعَ الفتن التي تصبو إليها النفسُ البشريةُ، فلم تؤثر في إيمانه ويقينه، ثم عرض عليه الملك فقال له الطاغية: تنصر وأزوجك ابنتي وأقاسمك ملكي قال: ما أفعل.

ثم لجأ إلى القوةَ علها تجدي شيئًا، فقال إن لم تفعلْ قتلتُك أو ألْقيتك في النُّقْرة النُّحاسِ. قال: ما أفعل. فدعا بنقرة نحاس فملئت زيتاً وأغليت، ودعا رَجُلا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فعرض عليه النصرانية فأبى، فأَلْقاه في النُّقْرة، فإذا بِعظامه تَلُوحُ.

فقال لعبد الله بن حذافة: تنصَّر وإلا ألقيتك. قال: ما أفعل. فأمر به أنْ يُلقى في النُّقْرة، فكتفوهُ فبكى، فقالوا: قَدْ جَزِعَ وَبكى. قال: ردوه، فقال: لا تظنّن أني بكيت جزعاً؛ ولكن بكيت إذ ليس لي إلا نفسٌ واحدة يُفعل بها هذا في سبيل الله ﷻ، كنت أحب أن يكون لي مِنَ الأنفس عدد كلَّ شعرةٍ فيَّ، ثم تُسلط عليَّ فتفعل بي هذا.

كنَّا جبالاً في الجبالِ وربَّما...سِرْنا على موجِ البحارِ بحارا

لم تنسَ افريقيا ولا صحراؤُها...سجداتِنا والأرضُ تقذفُ نارا

بمعابدِ الإفرنجِ كان أذانُنا...قبلَ الكتائبِ يفتح الأمصارا

كنا نقدِّم للسيوفِ صدورِنا...لم نخشَ يوماً غاشماً جبَّارا

ورؤوسُنا يا ربِّ فوقَ أكفِنا...نرجو ثوابَك مغنماً وجوارا

كنا نرى الأصنامَ من ذهبٍ...فنهدمَها ونهدمُ فوقَها الكفارا

قال: فأعجب منه وأحب أن يطلقه فقال: قبل رأسي وأطلقك. قال: ما أفعل.

قال: قبل رأْسي وأُطلق معك ثمانين من المسلمين. فَقَالَ: أما هذه فنعم، فقبل رأسه، فأطلقه وثمانين معه .

فَلَمَّا قدمُوا على عُمر قام إليه عُمر فقبل رأسه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يمازحون عبد الله فيقولون: قبّل رأس العِلج.

إنَّ الثباتَ على الحقِّ غايةٌ يسمُوا إليها الصالحون، ويَطمحُ لنيلِها المُخلِصون، ولكنْ خُلقَ الإنسانُ ضعيفاً، فعليهِ أنْ يَطرقَ بابَ ملكِ الملوكِ ويضرعَ بين يديه قائلاً: اللهمَّ يا مقلِّبَ القلوبِ، ثبتْ قلبي على دينك.

تساؤلات؟

نسليهان نور تُرك

هل بقينا ذات مرة بلا طعام نطعمه، وماء نشربه، وهواء نتنفسه؟ هل أمطرت على رؤوسنا القنابل والصواريخ؟ هل مرَّت ذات يوم طلقات البنادق بجانب آذاننا واخترق أزيزها مسامعنا؟ هل ذقنا يوماً شيئاً من هذه المآسي والكربات؟ ألمْ يبقَ يوماً على مائدتنا أطعمة ما تناولناها؟ ألمْ تبقَ أطعمة لم نتناولها في ثلاجاتنا؟ هل بقينا ذات يوم بلا سقف يظلنا، وجدران تسترنا، وأبواب ترد عنا زوار الظلام؟ هل تلبدت مشاعرنا من طحن القمح بين أحجار الرحى؟ هل أحرقنا ثيابنا ونحن نتعامل مع المواقد التي يتطاير الشرر منها؟ ألم نصبح متكاسلين عن تحضير العجين مع وجود كل مستلزماته في متناول أيدينا، حيث الأفران في مطابخنا، والماء في صنابير منازلنا، والطحين في ثلاجاتنا؟ ألم نجنح إلى نكران النعمة بالتفكير والبحث عن المزيد من الرفاهية والترف بينما نعيش في بحبوحة وهناء واستقرار؟

هل عرف أبناؤنا ما معنى الحرمان والفقر؟ هل عرفوا كيف يكون إحساس الجوع لدى الجائعين الذين لا يجدون لقمة تسد رمقهم؟ كم لبسنا جوارب ممزقة مثقوبة؟ وكم من المرات رقَّعنا ثيابنا الممزقة المهترئة؟ هل صارت بيوتنا يوماً مثل بيت ذاك النبي الكريم؟ هل صادفنا مرة ثلاجاتنا خالية من أصناف الطعام المختلفة إلا من غرامات من البرغل؟ وهل اكتفينا يوماً بوجبة طعام واحدة؟ هل اكتفينا يوماً بصنف واحد من الطعام؟

هل مرت بنا أيام متتالية وجيوبنا خالية من النقود؟ كم مرة استحيينا من أنفسنا لأننا نعيش في هذا العالم برفاهية مع أطفال جياع لسان حالهم ومقالهم يقول:

"عندما أذهب إلى الجنة سوف أطلب الخبز من الله"، بينما نرتجف نحن حتى من الوضوء، وفوق ذلك نطلب الجنة ونعيمها؟ كم مرة حاسبنا أنفسنا أو ترددنا في شراء ثياب جديدة بينما تعج خزاناتنا بمختلف أشكال الملابس؟ هل شعرنا يوماً بأنه من الإسراف امتلاك أكثر من ثلاثة قطع من الثياب؟

هل شعرنا يوماً بتأنيب الضمير ونحن ندفع مبالغ طائلة لشراء أرائك ربما نضعها في غرفة ولن نجلس عليها، وعلى شراء ثياب زفاف لن تُلبس إلا مرة واحدة في العمر، وعلى شراء بيوت مجهزة بأفخم مظاهر الرفاهية التي لا علاقة لها بالسُّنَّة لا من قريب ولا من بعيد؟

هل صرنا يوماً من الذين لا يتهربون بسبب عيوبهم من تبليغ الحق والخير، ومن الذين لا يقعون في أسر أنفسهم؟ هل قلنا يوماً: "الحمد لله أن لنا خالقاً غفوراً رحيماً سيغفر لنا حتى كبائر ذنوبنا وخطايانا، ويثيبنا على صغائر أعمالنا الصالحة"؟ هل تعلمنا من قطرة المطر إعمال التفكير من جديد؟

أخبروني يا قوم! هل نحن البخلاء الذين يمتنعون عن أي عمل أو تقديم أي شيءٍ من أجل نيل الجنة، على الرغم من مطالبتنا بها؟ هل نحن من الغافلين الذين يرغبون بالخلود، ثم يتهربون من الموت الذي يعد بداية الطريق الموصل إلى الحياة الأبدية؟ هل نحن من الجهلة الذين يتذمرون من الدنيا الفانية صباح مساء، ثم يتعلقون بها تعلقاً لا تفسير له ولا معنى؟

هل تخلقنا بأخلاق تاركي الصلاة على الرغم من أدائنا للصلوات الخمس؟ وهل ندعو ربنا المجيب للدعاء فنقول: "اللهم اجعل حياتنا ومماتنا في رضاك، واجعلنا ممن يرون الحق حقاً والباطل باطلاً، ولا تجعلنا من الذين عميت بصائرهم"؟

هل استطعنا أن نعثر على الأصحاب الأخيار الذين يطهروننا من حصائد ألسنتنا من الغيبة والنميمة، ومن ذنوبنا وخطايانا؟ هل استطعنا أن نتخذ صديقاً غيوراً علينا وحريصاً على الإعلاء من شأننا، ومهتماً بمشاكلنا وحلها؟ هل لاحظنا بأن الله يحفظ من يضحي بنفسه في سبيل أوامره، وليس من يضحي بأوامره في سبيل نفسه؟ هل نجحنا يوماً في النظر إلى المرآة، وإلى الأحداث القائمة والمستقبلية، وهل استطعنا يوماً السجودَ بطمأنينة وسكينة متحدِّين زخارف الدنيا ومباهجها التي تبدو وكأنه لا نهاية لها؟ هل نستطيع أن نرفع أيدينا بالدعاء لأولادنا وأصحابنا وأصدقائنا على الرغم من الحسرة والمرارة التي أحدثوها في قلوبنا بابتعادهم عنا، في الوقت الذي نحسبهم فيه قريبين إلى قلوبنا؟

هل استطعنا تنمية بصيرتنا التي تنظر بفراسة أكثر من العين التي غالباً ما تخطئ؟ هل استطعنا ذرف الدموع وطلب الخير حتى لمن أساء إلينا؟ هل تكلمنا يوماً عن أمور بجهالة دون أن نعرف ونطلع على ماهيتها وحقيقتها؟

نحن اعتدنا على الكثير من الأمور في هذه الدنيا، فقد اعتدنا على السجاد، والجوارب، والثياب، والنوافذ، والصحون، والطاولات، والمقاعد، والحواسيب، والهواتف الثابتة والمحمولة، والحقائب، ومحافظ النقود، والإنترنت... حسناً؛ اعتدنا عليها. ولكن هل أدركنا بأن أغلب مخاوفنا المتعلقة بالرحيل عن هذه الدنيا إنما تنبع في الأساس من خشيتنا مفارقة هذه الأمور التي اعتدنا عليها؟

هل قلنا ذات يوم: "أنا لا أريد إزعاجات، ولا مشاكل، ولا منغصات، ولا أتحمل العراقيل! وإذا ما أحسست أن أمراً ما سوف يمس بمصالحي فسوف أقضي عليه من جذوره"؟ هل اكتفينا بحمل وزن أربعة كيلوغرامات بينما تؤهلنا طاقتنا لحمل أربعين، ثم حاولنا خداع ضميرنا والالتفاف عليه بمبررات واهية؟ هل ظننا بأن التحدث عن أمر من الأمور مرة واحدة هو قيام

هل ضحينا بمؤسسة "الأخوة الدينية" في سبيل أهواء النفس ورغباتها، وألقينا بها في بئر لا قرار له؟ هل يمكن لرجل لا يرى في النساء ما عدا زوجته أخواته في الدين، ثم ينظر إليهن نظرة شهوة ونية فاسدة أن يدخل الجنة؟ وهل يمكن لامرأة فاسدة التفكير وقليلة الحياء لا ترى الرجال ما عدا زوجها إخوانها في الدين أن تكون قد بلغت مرتبة الإيمان الحقيقي؟

بواجب التبليغ للنجاة بأنفسنا من المسؤولية؟ عندما فعلنا ذلك، هل تذكرنا موسى عليه السلام الذي بلَّغَ فرعون مرات ومرات؟ هل اقتدينا بالرسول الأكرم عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم الذي بيَّن الحقَ لأمته بصبر وإصرار؟

هل ضحينا بمؤسسة "الأخوة الدينية" في سبيل أهواء النفس ورغباتها، وألقينا بها في بئر لا قرار له؟ هل يمكن أن يدخل الجنة رجلٌ لا يرى في النساء- ما عدا زوجته- أخواته في الدين، ثم ينظر إليهن نظرة شهوة ونية سيئة؟ وهل يمكن لامرأة فاسدة التفكير وقليلة الحياء لا ترى الرجال إخوانها في الدين أن تكون قد بلغت مرتبة الإيمان الحقيقي؟

هل استطعنا الخروج من بين البائسين والتعساء الذين يعانون من مرض الحسد المزمن، ويخلطون بين المرشد الكامل والرجل الماهر في عمل ما، ثم وصلنا إلى الحقيقة بسلام؟

أليس كوكب الزهرة هو الكوكب الأكثر حرارة في النظام الشمسي، على الرغم من أن عطارد هو الكوكب الأقرب إلى الشمس؟ وطالما أن هذا الأمر جلي وواضح للعيان، ألم ندرك ونفهم بعد مقولةَ: "إن الذي في اليمن بجانبي"؟ ألم نعلم حق اليقين أن الاستفادة لا تكون بالقرب المادي، وإنما تكون بالقرب الروحي؟

هل تعلمنا درساً من موقف عمر رضي الله عنه الذي قال بسرور: "الحمد لله الذي جعل لي أصحابًا يقوِّمونني إذا اعوججت" ليكون مانعاً لنفوسنا من الاغترار والتكبر تجاه أصحابنا الذين يحاولون القيام بواجب النهي عن المنكر؟ هل تجاوزنا يوماً بحجة "الأمر بالمعروف" حدودنا وآذينا مَن أمرناه بدافع نفساني؟

هل شكرنا الله على عونه، وعلى العوائق التي تظهر في طريقنا؟ هل نجحنا في الابتعاد عن الوهن والتذمر ونحن نشكر الله تعالى حتى على العوائق التي تبدو كأنها حواجز أمام فعل الخيرات، مستمسكين بالحكمة القائلة:

"لولا العوائق والمصاعب لما شُحِذَت هممنا".

أليس مؤلماً ما نراه اليوم من ضعف أمة محمد عليه الصلاة والسلام النبي الكريم الذي لم يتنازل قيد أنملة عن المبادئ والقيم التي حملها، وتحدى المشركين قائلاً : "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلكَ فيه ما تركته"، هذا الضعف الذي تجلى بتسابقهم على المال وجعله الهدف الأوحد، وبالسكوت عن الأخطاء والانحرافات مقابل حفنة من النقود؟

هل استطعنا أن نجعل شعارنا الإصرار على العمل وجعل الهدف رضا الله تعالى بغضِّ النظر عمَّا يقوله الناس، كقولهم: هل سيستمع إليك من لم يصغ إلى حديث رسول الله؟ القوم لا يترددون حتى عن الافتراء على الله، فهل من الغريب أن يؤذوك بألسنتهم؟ هل نجحنا في الاستقامة دون نفاق، وفي الوقوف مع الحق والالتزام بالعدالة؟ وهل علمنا بأن نجاحنا لم يكن إلا بلطف وتوفيق من الحق سبحانه وتعالى؟

نكتفي حالياً بهذا القدر من الأسئلة والتساؤلات. ولا أعلم من سيفكر فيها، ومن سيطرحها جانباً؟ إن الله عليم بالنيَّات. فأنا سألت في سبيل الله، ومن رغب فليجب!

الجيل الجميل

إدريس آربات

عندما تغيب الغاية تهاجم الغفلة وتفرض هيمنتها. والغفلة هي اتباع جموع الناس، والتوجه حيثما توجهوا، أي محاولة الإنسان أن يكون مثل الجميع ومعهم. وإن سعي المرء ليكون مثل الجميع ابتعادٌ عن ذاته وعدم تجسيدها على حقيقتها، فهو مثل التقمص والتمثيل. هو تقدم نحو الاتجاه الذي يلقى فيه تقبل الناس ويجلب الثناء والتصفيق، وليس نحو الوجهة التي يرشده إليها ضميره ووجدانه. هو تمثيل أمام الجماهير، إنه اللامبدأية.

ما الغاية؟ هي وضع هدف كبير. ومثال ذلك: العمل على كتابة رواية تحقق شهرة وتأثيراً على مستوى العالم، أو محاولة المرء أن يكون رجل علم يحتل المرتبة الأولى في الدنيا كلها، أو سعي المفسر لتفسير معاني القرآن الكريم بشكل موافق للمراد الإلهي. فمثل هذه النيَّات هي الغاية؛ والغاية النهائية هي رضا الله تعالى.

إن الهدف عظيم وبعيد، كأنه نجمة فوق قمة جبل شاهق. فإن ذهبت تتسلق ذاك الجبل للوصول إليها، فإنها سوف تلمع وتتلألأ فوق الجبل المقابل. ولعل الوصول إليها محال، ولكننا سوف نقطع مسافة طويلة بحماسة الوصول إليها.

يكون الإنسان في شبابه مهووساً بإنقاذ العالم وتخليصه وإصلاحه. ثم يأتي عليه يوم بعد مضي السنوات يكتشف فيه بأنه لم يستطع إصلاح حيِّه، وأقربائه، وحتى أسرتهس، وعجز عن جذبهم إلى المبادئ التي رسمها في فكره، وأن الأمر لم يكن إلا

مجرد حلم. إلا أنه يكون قد بذل جهوداً كبيرة ومضنية وحيوية بفضل هذ الدور الذي رسمه لنفسه، واستخدم قدراته، وعاش حياته في سبيل خير المجتمع.

هل هذا الأمر هو "الإحسان" الذي يتحدث عنه الدين الإسلامي؟ أي إنه شعور "أن تعبد الله كأنك تراه".

إنْ كنا نحب الله تعالى، وإذا كان رضاه هو غاية الغايات لدينا، فلا ريب عندها أننا سوف نسعى لدى القيام بأي عمل إلى نيل قبوله واستحسانه.

وإذا كان مقام السعي إلى نيل الاستحسان والإعجاب عن أعمالنا مقاماً رفيعاً وعظيماً، فلا شك أن دقّتنا سوف تزداد بشأن الأعمال التي نقوم بها. وفوق ذلك؛ إذا كان العمل من ضمن الأعمال التي نحبها، ونقوم به بحماسة أداء عبادة من العبادات، فيكون فناً وإبداعاً خالصاً، وهو حال التماهي مع العمل. وإن الحديث المأثور: "إن الله جميل يحب الجمال" سوف يرتقي بنا إلى الذروة في الفن.

ما هو الفن؟ إنه إنتاج الجمال.

ومن هو المسلم؟ إنه ذاك الإنسان الذي ينتج الجمال.

ويمكن أن نفهم الآية القرآنية:

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (الإسراء: ٥٣)

على أنها دعوة للمسلمين لأن يكونوا دائماً في القمة بشأن فنون الكلام والقول.

إن العيش في الحياة بأسلوب حسن جميل والابتعاد عن الإفراط والتفريط ليس إلا عمل فني.

"ينبغي على الإنسان إما أن يؤلف كتاباً جديراً بالقراءة، وإما أن يحيا حياة جديرة بالكتابة".

فطريق ترك بصمة في الحياة، وضمان المرء بقاءَ ذكره وعدم نسيانه في ذاكرة الناس بعد الموت يمر عبر هذين المفهومين، فكلاهما عمل فني. إذ إن كلاً من الكتاب المؤلف بجودة عالية، والحياة المعاشة بطريقة فاضلة يتركان بصمة وأثراً بعد رحيل صاحبهما.

هل الله ﷻ بخلقه الآلاف من مظاهر الجمال في شتى بقاع الأرض يحثنا ويشجعنا على إنتاج الجمال؟ هل يريد القول: "أنا الله المحب للجمال، وهذه من آيات الجمال التي خلقتها، فليعمل عبادي أيضاً على إيجاد الجمال"؟

إن الرغبة بتحقيق أشياء والقيام بأعمال تبقي الإنسان حياً. وإن انتفاء الغاية يقضي على الحماس والحركة والحيوية. ينبغي على الإنسان إبقاء الرغبات والتطلعات حية في قلبه، حيث أن انتهاء الرغبات والتطلعات شلل وانعدام للحركة. وانعدام الحركة يعني الموت.

عندما عرَّفنا المسلم بأنه "الإنسان الذي ينتج الجمال" فإن هذا التعريف يشمل أيضاً جانب الإنتاجية والعطاء الذاتي والتلقائي. أي إنه سيستمر بإنتاج الجمال دائماً. وأما إن توقف عن الإنتاج والإبداع، أو كان نتاجه غير جميل، فيشير الأمر إلى عدم حصول المقصود.

وينبغي أن لا يُفهم الأمرُ بصورة خاطئة، فالجمال هنا يشمل كافة الميادين. يشمل الإيمان، والعبادة، والأخلاق، والقانون، والعمارة، والبيئة، والأدب، والموسيقى، والرسم ضمن معايير محددة. وأقول موسعاً من نطاق محتوى الكلمة قدر المستطاع: إن المسلم هو ذاك الإنسان الذي يجمِّل ويزيِّن ساحة الحياة.

فهذا هو ما قلنا عنه: عبودية. وعندما يقوم المسلم بذلك فإن الغاية الأساسية هي رضا الله تعالى. وما المشاعر الجميلة خلال العمل إلا مكافأة مسبقة للعمل.

إذا عدنا إلى بداية الحديث نقول: ما هو فقدان المبدأ وضياع "سر الإحسان"؟ إنه ربط الإنسان لحياته بالمادة وجعلها مبتغى الحياة، إنه موت عالم القلب والروح، إنه نسيان الغاية، والغرق في الوسيلة، والانتهاء فيها.

وإذا نظرنا إلى حال العالَم الإسلامي سنجد مع الأسف بأن هذا العالَم قد فقد منذ قرون حسَّه الجمالي كما فقد حماسته في مجال الإنتاج، والإبداع، والاختراع، والاكتشاف. إن هذا العالَم الكبير المترامي الأطراف قد ظن بأن دينه مجموعة من الطقوس، فتوقف عندها وأخذ يعيدها ويكررها برتابة ومن غير وعي. مرت قرون وأمة محمد عليه الصلاة والسلام لم تقدم شيئاً للحياة، ولم تفلح حتى في حماية عرضها وشرفها والمحافظة عليها. إنها مستمرة بتلقي الضربات المؤلمة، وبخسارة الدماء والأرواح. ظنت بأن سلاسل الأسر والمذلة التي في عنقها سلاسل زينة وجمال. لقد تباطأت في استخدام عقلها، وفي إنتاج العلم والفكر لدرجة التوقف.

فلمَ الأمر على هذا النحو؟ لماذا وصلت الأمة من الآيات القرآنية التي تبلغ ما يزيد عن ستة آلاف آية، ومن العدد الهائل من الأحاديث النبوية الشريفة إلى مفهوم ديني عقيم عاجز عن إنتاج شيءٍ؟

إن جواب هذا السؤال ينتظر رجال العلم والفكر الذين يتمتعون بدقة التفكير، وبعد النظر، وبالعزيمة والإصرار، ويجلون الحق ويقدرنه حق قدره.

إن ما يليق بالإنسان المسلم هو القيام بالأعمال المستدامة، ووضع الخطط، والبرامج المنظمة لسائر أعماله. ولا شك أن "اليأس موت"، ولكن مع ذلك فإن العمل بيأس خيرٌ من التقاعس عن العمل وتركه.

إن المسألة الأساسية هي إيجاد حل لمشكلة الغذاء وسبل العيش. فهي الشرط الأساسي للصمود في هذا العالم المحاط بالموت، وللبقاء على قيد الحياة. فبذل الجهود والسعي من أجل الصمود في هذا العالم المتوحش عملٌ يتَّسم بالشرف والإباء. غير أن هذا الأمر ليس كل شيءٍ. فمن بين غايات الحياة العملُ على تحقيق خير المجتمع، وفتح آفاق وسبل للوصول إلى عالم أجمل وأفضل، وخلق أجواء ومناخات أكثر نزاهة وشفافية وروحانية. وتحقيق هذه الأهداف واجب على أناس يتمتعون بأفق واسع، وخيال خصب، وموجهين أبصارهم وبصائرهم إلى العلي القدير. وفي النهاية، فإن هذا الصنف من البشر يرحلون تاركين بركة أعمالهم في هذه الدنيا الآيلة إلى الزوال لأناس آيلين إلى الموت.

إن العمر الواحد مرصود لغاية واحدة؛ ألا وهي رضا الله. فما أجمل الآفاق التي سيفتحها تحقق رضا الله أمام الإنسان.

إن الرياء والمفاخرة التي قلنا عنها المذلة، والرغبة في الحصول على إعجاب الناس لا تليق بالإنسان، ولا تتماشى مع التوحيد أبداً.

لا؛ الإنسان ليس ضحية وعبد لإنسان آخر، ولا ينبغي أن يكون.

إن الرغبة بتحقيق أشياء والقيام بأعمال ستبقي الإنسان حياً. وانتفاء الغاية يقضي على الحماسة والحركة والحيوية. ينبغي للإنسان إبقاء الرغبات والتطلعات حيَّةً في قلبه، ذلك أن انتهاء الرغبات والتطلعات شللٌ وانعدامٌ للحركة، وانعدام الحركة يعني الموت.

الذي أبى السكوت أمام الظالم

زيد بن أرقم-٢ رضي الله عنه

مصطفى أريش

روى زيد رضي الله عنه تسعين حديثاً عن شمس العالمين سيدنا محمد ﷺ. وروي عنه أنه امتنع عن رواية الحديث لما تقدمت به السن مبرراً ذلك بأنه شاخ وبدأ ينسى أحاديث رسول الله ﷺ ويجد صعوبة في تذكرها وروايتها. ورد الكثير من الأحاديث التي رواها زيد في الكتب الستة، وفي غيرها من كتب الحديث. وقد روى أحمد بن حنبل في "مسنده" أربعة وثمانين حديثاً من هذه الأحاديث مع تكرارها.

لقد كان زيد رضي الله عنه شديد الحرص والحذر في مجال رواية الحديث، والإجابة عن كل مسألة يُسأل عنها. ونجد حرصه وحالته الروحية هذه في الروايات الآتية:

– عن ابن أبي أوفى رضي الله عنه قال: كنا إذا أتينا زيد بن أرقم رضي الله عنه فنقول: حدثنا عن رسول الله ﷺ فيقول:

كبرنا ونسينا والحديث عن رسول الله ﷺ شديد.

(ابن عساكر، كنز العمال، ٥/ ٢٣٩؛ محمد يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة، ٣/ ٥١٨)

كان زيد بن أرقم رضي الله عنه عالماً في مجال التجارة وخاصة في مسألة تبديل النقود الذهبية والفضية ببعضها البعض لكونه عمل بالتجارة كشريك لبراء بن عازب رضي الله عنه. إلا أنه لم يكن يجيب عن كل مسألة يسأل عنها في المواضيع الفقهية. وإنما يحيل السائل إلى من يراهم أعلم منه في ذلك. حيث يروي أبو المنهال حادثة تتعلق بهذا المسألة فيقول:

– سألت زيد بن أرقم، والبراء بن عازب عن الصرف (تبديل الذهب بالفضة)، فجعل كلما سألت أحدهما قال: سل الآخر؛ فإنه خير مني وأعلم مني.

(ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ٢/ ١٦٦)

وكذلك يروي عالم كوفي من التابعين الحديث الآتي والذي يدل أيضاً على حساسيته في مسألة رواية الحديث: عن يزيد بن حيان، قال:

انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم. فلما جلسنا إليه قال له حصين:

لقد لقيت، يا زيد! خيراً كثيراً. رأيت ﷺ. وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت خلفه. لقد لقيت، يا زيد خيراً كثيراً. حدثنا، يا زيد! ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال زيد رضي الله عنه:

يا ابن أخي! والله! لقد كبرت سني، وقدم عهدي. ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ. فما حدثتكم فاقبلوا، وما لا، فلا تكلفونيه.

ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً، بماء يدعى خما، بين مكة والمدينة. فحمد الله وأثنى عليه. ووعظ وذكر. ثم قال :

"أما بعد. ألا أيها الناس! فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب. وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به! فحث على كتاب الله ورغب

فيه. ثم قال : "وأهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي".

فقال له حصين: ومن أهل بيته؟ يا زيد! أليس نساؤه من أهل بيته؟

قال زيد: نساؤه من أهل بيته. ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده.

قال حصين: وهم – أي من هم –؟

قال زيد: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال حصين: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال زيد: نعم.(مسلم، فضائل الصحابة، ٣٦)

وجاء في رواية أن رسول الله ﷺ قال:

"ألا وإني تارك فيكم ثقلين: أحدهما كتاب الله ﷻ. هو حبل الله. من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة".(مسلم، فضائل الصحابة، ٣٧)

لزيد بن أرقم ﷺ روايات في مختلف المسائل. وقد روى فيما روى هذا الحادثة التي تظهر مدى حذر وحساسية أبي بكر ﷺ في مسألة اللقمة الحرام:

– عن زيد بن أرقم ﷺ قال: كان لأبي بكر مملوك يغل عليه، فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة، فقال له المملوك:

ما لك كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة؟ فقال أبو بكر ﷺ:

حملني على ذلك الجوع، من أين جئت بهذا؟

قال المملوك: مررت بقوم في الجاهلية فرقيت لهم، فوعدوني. فلما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطوني هذا الطعام.

فقال أبو بكر ﷺ:

أف لك! كدت أن تهلكني! فأدخل بيده في حلقه فجعل يتقيأ وجعلت لا تخرج. فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء. فدعا بعس من ماء، فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها. فقيل له: يرحمك الله! كل هذا من أجل هذه اللقمة؟

فقال لهم: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها، سمعت رسول الله ﷺ يقول: كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به. فخشيت أن ينبت شيءٌ من جسدي من هذه اللقمة. (أبو نعيم، الحلية، ١/ ٣١)

ويعلمنا زيد ﷺ الأدعية المطلوبة في الحياة اليومية، فيروي لنا ما يلي: عن زيد بن أرقم ﷺ ، قال : سمعت نبي الله ﷺ يقول في دبر كل صلاة :

"اللهم ربنا !ورب كل شيء! أنا شاهد أنك أنت الرب وحدك، لا شريك لك،

اللهم ربنا! ورب كل شيءٍ! أنا شاهد أن محمداً عبدك ورسولك،

اللهم ربنا! ورب كل شيءٍ! أنا شاهد أن العباد كلهم إخوة،

اللهم ربنا! ورب كل شيءٍ! اجعلني مخلصاً لك وأهلي في كل ساعة في الدنيا والآخرة، ذا الجلال والإكرام، اسمع واستجب، الله أكبر الأكبر، الله نور السموات والأرض، الله أكبر الأكبر حسبي الله ونعم الوكيل أ الله أكبر الأكبر".(البداية، ٤/ ٢٤٣؛ الحلية، ١/ ١١٩)

وفي رواية أخرى ينقل لنا زيد ﷺ الدعاء الآتي:

لا أقول لكم إلا كما كان النبي ﷺ يقول، كان يقول:

"اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب القبر،

اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها،

اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها". (شرح رياض الصالحين، ج٦، ص، ٤٥٦؛ مسلم، الذكر، ٧٣)

سكن زيد ﷺ أواخر عمره في الكوفة. وتوفي فيها سنة ٦٦ هجرية، ٦٨٦ ميلادية.

رضي الله عنه وأرضاه.

اللهم ارزقنا إخلاص وصدق زيد رضي الله عنه، وشفعه فينا. آمين.

ماذا تعني "صبغة الله"؟

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة:

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ (البقرة: ١٣٨)

فماذا تعني صبغة الله تعالى؟

إن صبغة الله تعني الفطرة السليمة النقية التي أودعها الله تعالى في البشر، تعني صباغ الإسلام ولونه. إنها تعني أن الدين الوحيد عند الله تعالى إنما هو الإسلام بعقائده، وعباداته، وأخلاقه، ومعاملاته. تعني الكمال الروحي والأخلاقي الذي يتم تحصيله من خلال اتباع الإسلام وتطبيق تعاليمه. تعني دين الله الذي لا يعتريه تغير وتبدل؛ إنها سُنَّةُ الله.

ونفهم من هذه المعاني أنه قد تم تشبيه إيمان العبد ومختلف أنواع العبادات الأخرى، وخِلقَتُه وتكوينه الطاهر النقي الجدير بالقبول والاستحسان، بصباغ الثياب. وقد جاء هذا التشبيه لكون كلا الأمرين زينة وجمال.

لقد استُخدِم في الآية الكريم لفظُ "صبغة" الذي يعني الصباغ والتلوين بدل لفظ "الفطرة". وهذه العبارة تُستعمل أيضاً بمعنى التعميد الذي يطبقه النصارى على مواليدهم في اليوم السابع لولادتهم. حيث إن النصارى يغطسون أبناءهم في ماء أصفر بدلاً من الختان المعروف لدى المسلمين، ويطلقون على هذا الفعل اسم "التعميد".

وأما القرآن الكريم فيرفض ادعاء تطهير الأطفال من خلال غطسهم في الماء، ويبين بأن الطهارة الحقيقية هي خلق الله تعالى لعباده على فطرة الإسلام.

ويشير إلى وجوب حفظ الطهارة الحقيقة التي تسمى بصبغة الله، ويلفت الأنظار إلى أن العبودية لله وحده مرتبطة بالمحافظة على الفطرة.